مارك توين

سيرة ذاتية



30.12.2015

ترجمة

سعيد رضوان حران

مــــارك تويــــن

سيرة ذاتية

ترجمة: سعيد رضوان حران

مراجعة: سعيد الغانمي

الطبعة الأولى 1436هـ 2014م

PS1331 .A212 2014
Twain, Mark, 1835-1910
[Autobiography of Mark Twain]
مارك توين: سيرة ذاتية/ ترجمة سعيد حران؛ مراجعة سعيد الغانمي.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 202 ؛ 11×19 سم.
ترجمة كتاب : Autobiography of Mark Twain
تدمك: 978-9948-17-371-7
1– Twain, Mark، 1835–1910.
2– المؤلفون الأمريكيون – القرن 19 – تراجم.
أ– حران، سعيد.   ب– غانمي، سعيد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
The Autobiography of Mark Twain (1986)



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

من المقدمة
(مقدمة الكاتب):

سأضع في اعتباري في هذه السيرة الذاتية أني أتحدث إليكم من وراء القبر.. وأني سوف أكون في عداد الأموات حين يصدر هذا الكتاب.. لقد بدا لي أنه يمكنني أن أتحدث بمطلق الصراحة والحرية- كما لو كنت أكتب رسالة غرامية- في حال تأكد لي أنّ ما سأكتبه لن تقع عليه عين إلا بعد وفاتي وتحرري من قيود هذه الدنيا.

الفصل الأول:

ولدت في الثلاثين من نوفمبر عام 1835 في ولاية ميزوري، في قرية لا يكاد يحس بوجودها أحد، تسمى فلوريدا. انتقل والداي إلى ميزوري في مطلع الثلاثينات من القرن، لا أذكر في أيّ يوم بالتحديد، لأني لم أكن قد ولدت بعد في ذلك الوقت، إضافة إلى أني لم أعر مثل هذه الأمور أيّ اهتمام في حياتي. كان يعيش في تلك القرية مائة إنسان، وقد أدت ولادتي إلى زيادة عدد السكان فيها بنسبة واحد في المائة، وهذه مساهمة مني لها تفوق ما كان يمكن أن يسهم به كثير من أفضل الرجال في التاريخ لقراهم ومدنهم، إذ لم يذكر أنّ واحدًا منهم- حتى شكسبير نفسه- قد فعل شيئًا بحجم ما فعلت أنا لفلوريدا!

أرسل لي مؤخرًا أحد الأشخاص من ميزوري صورة للبيت الذي ولدت فيه. لطالما أشرت لهذا البيت قبل ذلك على أنه كان قصرًا، أما وقد شاهدت صورته الآن فإني سأكون أكثر

حذرًا ودقة في الحديث عنه!

في القرية شارعان، يمتد كل منهما مئتي ياردة، يمتلئان بطين أسود كثيف في أوقات المطر، وغبار قاتم في أوقات الجفاف. كان أغلب البيوت فيها مبنيًا من جذوع الشجر، ولم يكن يوجد بيت واحد من الآجر أو الحجر. وكانت هناك كنيسة من الخشب أيضًا استخدمت كمدرسة ابتدائية في أيام الأسبوع العادية. كان في القرية دكانان أحدهما لعمي، وكان صغيرًا جدًّا، فيه بعض اللفائف من القماش، وبعض براميل السمك المملح، وفيه قهوة وسكر ومكانس وفؤوس، وأشياء أخرى وضعت هنا وهناك. وعلى الجدران علقت أعداد كبيرة من القبعات الرخيصة والمقالي المعدنية. وفي الطرف الآخر من الغرفة كانت أكياس فيها طلقات، وقالب جبن أو قالبان، وبرميل- أو نحو ذلك- من الويسكي. وكان إذا اشترى أحد الأولاد ما قيمته خمسة أو عشرة سنتات حصل مجانًا على حفنة من السكر، وإذا اشترت إحدى

النساء بضع أذرع من القماش فقد كانت تحصل على لفة من الخيوط، أما الرجل فيستطيع تناول شربة من الويسكي، وكان له أن يجعلها بالحجم الذي يشاء.

الفصل الثاني:

كان عمي مزارعًا أيضًا، وكان يسكن في منطقة داخل الريف تبعد أربعة أميال عن فلوريدا. لم أعرف في حياتي رجلًا أفضل منه. كان يستضيفني كل عام في منزله لشهرين أو ثلاثة، منذ أن تقضت أربع سنوات على انتقالنا إلى هانيبال وإلى أن بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري.

تلك المزرعة كانت في نظر الأولاد جنة! كان المنزل فيها مبنيًّا من طبقتين من الخشب، وكانت تربطه بالمطبخ أرضية واسعة مسقوفة، يضعون الطاولة في الجزء الأوسط منها في الصيف، حيث الظل الوارف والنسيم العليل، وما لذ وطاب من الطعام والشراب. إنه لمشهد تدمع

عيني لذكراه!

كان ذلك المنزل يتوسط ساحة شديدة الاتساع، مسيّجة من ثلاث جهات، يقع معمل التدخين قبالتها ومن خلفه أشجار الفاكهة، ووراء تلك الأشجار أحياء الزنوج وحقول التبغ. تنخفض بك الطريق من المنزل نحو غرفة صغيرة من الخشب تقابل السياج، وهناك تنحدر التلة بأشجارها الكثيفة انحدارًا شديدًا باتجاه جدول ينساب الماء على امتداد قاعه الصخري بخرير يطرب الأذن، ينعطف نحو الداخل، ثم إلى الخارج، ثم تراه هنا، وتراه هناك تحت ظلال الأشجار والخضرة الشديدة التي تطل من فوقه. كم هو رائع ذلك المكان حين تدخله بقدمين حافيتين! كانت توجد فيه برك للسباحة أيضًا، وكان يحظر علينا الاقتراب منها، ولهذا كنا نكثر من التردد عليها، فقد كنا أطفالًا مسيحيين صغارًا، وقد عرفنا في وقت مبكر من طفولتنا قيمة الفاكهة المحرمة.

كانت تعيش في تلك الغرفة الصغيرة عبدة

مسنة يملأ الشيب رأسها، وكانت تلازم الفراش. كنا نذهب إليها كل يوم وننظر إليها بدهشة واستغراب، إذ كنا نعتقد بأنّ عمرها كان يقارب الألف عام، وأنها قد أدركت النبي موسى وتحدثت إليه. كنا نسميها «العمة حنّة». لقد كانت امرأة شديدة التديّن، شأنها في ذلك شأن بقية الزنوج.

كان جميع الزنوج أصدقاء لنا. والعم دانيال واحد منهم، فقد وجدنا فيه صديقًا طيّبًا وفيًّا. كان عبدًا في أواسط العمر، وكان أرجح أهل حيه عقلًا. كان عطوفًا دافئ الإحساس، ذا قلب صادق نقي. لقد مر الآن أكثر من خمسين سنة لم أره فيها، ولكنّ روحه الطيبة لم تفارقني في أغلب هذه المدة. كانت تلك المزرعة هي المكان الذي تولدت فيه عندي المحبة القوية لأبناء جلدته، والإعجاب الصادق بسجاياهم الجميلة. وقد استمر هذا الشعور والتقدير لدي تجاههم حتى الآن، برغم مرور أكثر من ستين عامًا.

الفصل الثالث:

لم تبرح تلك المزرعة مخيلتي إلى الآن، وما زلتُ أراها بكل وضوح، بجميع تفاصيلها وتوابعها. أرى الغرفة التي تجتمع فيها العائلة في المنزل هناك، المستوقد الكبير فيها يتكدس بداخله الحطب في ليالي الشتاء وتلتهب النار فيه، والقطة الكسول تفترش المكان أمامه، والكلاب تغفو. أرى عمتي تجلس إلى جانب الموقد، تغزل بصنارتها، وإلى الجانب الآخر منه يجلس عمي، يدخن بغليونه. أرض الحجرة المكشوفة اللامعة تتراقص في مرآتها أطراف اللهب الخافت. وفي الجزء الخلفي من البيت مجموعة من الأطفال يلعبون.

على الجهة الخارجية من السياج الأمامي للمزرعة تمتد الطريق الريفية. وهي طريق تمتلئ بالغبار في الصيف، وتكون مرتعًا خصبًا للأفاعي التي كانت تهوى التمدد فيها وتعريض أجسادها للشمس. وخلفها غابة كثيفة صغيرة الأشجار، تتخللها طريق معتمة

تمتد لمسافة ربع ميل. ونزولًا نحو اليسار تأخذك الغابة إلى حيث توجد الأراجيح. كانوا يقيمون هذه الأراجيح على صغار الأشجار التي كانت تصبح خطيرة حينما تيبس، إذ كثيرًا ما كانت تنكسر حين يرتفع أحد الأطفال في الهواء، ولهذا لم يكن يمر عام إلا ويتم فيه تجبير عدد كبير من العظام. لقد كنت محظوظًا في هذا الجانب ولم يصبني أيّ أذى، ولكنّ بقية الأطفال من أقاربي لم ينج منهم أحد. كان عددهم ثمانية، وبين وقت وآخر كان يكسر أربع عشرة ذراعًا من أذرعهم. لكنّ علاجهم كان يكلف مبلغًا بسيطًا جدًّا، فالطبيب لم يكن يتقاضى سوى خمسة وعشرين دولارًا في العام بأكمله عن جميع أفراد العائلة.

لم يكن الطبيب يستدعى في حالات المرض العادية، إذ إنّ الجدة كانت تسد مكانه في العائلة. لقد كانت كل واحدة من النسوة الكبار طبيبة بذاتها، وكانت تقوم كل واحدة منهن أيضًا بجمع أدويتها الخاصة من الغابة.

كان الدكتور ميريدث طبيب عائلتنا الخاص،

وقد تكلف إنقاذ حياتي مرات عديدة، وبرغم ذلك فقد كان رجلًا طيّبًا سليم النية. لنتجاوز المسألة!

كثيرًا ما قيل لي إني كنت طفلًا عليلًا ضعيف الجسم، متعبًا لمن حولي لا يستقر لي وضع على حال، وإني كنت أعيش في الدرجة الأولى على الأدوية في السنوات السبع الأولى من حياتي. ذات مرة سألت والدتي عن هذا الأمر، وكانت وقتها عجوزًا في الثامنة والثمانين، قلت:

- «أظن أنك كنت طوال ذلك الوقت خائفة وقلقة بشأني؟»

- «نعم، طوال الوقت».

- «كنت تخشين ألا أبقى على قيد الحياة؟»

بعد صمت وتفكير قالت:

- «بل كنت أخشى أن تبقى».

الفصل الرابع:

كانت المدرسة تبعد ثلاثة أميال عن المزرعة في تلك المنطقة الريفية. وقد أقيمت على مساحة من الأرض داخل الغابة بعد أن أزيلت منها الأشجار، وكانت تتسع لما يقرب من خمسة وعشرين من الأولاد والبنات. كنا نداوم على الذهاب إليها في الصيف مرة أو مرتين في الأسبوع، نسلك الدروب التي كانت تؤدي إليها خلال الغابة في برودة الصباح، ثم نعود مع حلول الظلام. كان جميع التلاميذ يحضرون غداءهم معهم ويحملونه في سلال، ووقت الظهيرة يجلسون في ظل الأشجار ويأكلون. وهذه المرحلة من مراحل التعليم الذي تلقيته هي التي أتذكرها وأنظر إليها بكامل الرضا.

وكما أسلفت، فقد كنت أقضي جزءًا من كل عام في مزرعة عمي إلى أن بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري. كانت أيّامًا في منتهى السحر والجمال تلك التي أمضيتها هناك مع أقاربي، وكذلك ذكراها. فأنا لا أزال أعرف

أسرار تلك الغابة الكثيفة الغامضة، ولا أزال أشم رائحة التراب فيها، وروائح الورد البري التي تنبعث منها بهدوء. أرى أوراق الأشجار والنباتات تلمع بعد أن بللها المطر، تنتفض حين تهب عليها الريح، فتلقي بقطرات الماء بعيدًا. إني أسمع صوتها. ومن بعيد تأتي ضوضاء الطيور. ألمح مخلوقات صغيرة تسرع خلال الأعشاب منزعجة. أستطيع أن أستحضر كل ذلك وأستعيده، حقيقيًّا كما كان، مباركًا كما كان. أرى الأشجار في ثياب الخريف، بألوانها الأرجواني والذهبي والأحمر، وأسمع خشخشة الأوراق المتساقطة تحت أقدامنا ونحن نمشي خلالها. أحس بحبات المطر ترتطم برأسي، وبحبات الجوز تهوي بها الريح إلى الأرض فتنفلق. أتذكر المطبخ في بيت العم دانيال تمامًا كما كان يبدو أثناء الليل في ذلك الوقت. أرى الأطفال البيض والسود حول النار، يمرح ضوؤها في وجوههم، وتتراقص على الجدران ظلالهم.

أتذكر الدرج الخشبي في بيت عمي بسيطًا ينعطف نحو اليسار فوق منبسَط السلم، وأتذكر السقف المائل فوق سريري، والمربعات التي يحدثها ضوء القمر على أرض الحجرة، وعالم الثلج الأبيض البارد في الخارج. أتذكر ضجيج الرياح واهتزاز المنزل في الليالي العاصفة، وكيف كان الواحد منا يشعر بالسعادة والدفء وهو ينصت لذلك كله تحت غطائه. كم كانت شديدة ظلمة تلك الغرفة والقمر يقترب من نهاية دورته، وكم كان جميلًا أن تستلقي في فراشك في ليالي الصيف وتستمع لصوت المطر يضرب على سطح المنزل، وتستمتع بلمعان البرق البهي وقصف الرعد المهيب! أتذكر ألعاب المطاردة وصيد الطيور، وكيف كنا ننهض من الفراش، ونغادر المنزل في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس. كم كانت شديدة برودة الطقس، وكم تمنيت أن أكون في وضع صحي لا يسمح لي بالنهوض، فأظل مستمتعًا بدفء الفراش. كان يجتمع لنا بتصفيرة واحدة

ضعف ما كنا نريد من الكلاب، فتنطلق في خضم فرحها وسرورها وتلقي بالأولاد من ذوي الأجسام الصغيرة نحو الأرض، وتمضي دون توقف، فتصنع جلبة وفوضى لا داعي لها. يتسلل الفجر الرمادي في ثنايا العالم ويظهر، وتشدو الطيور وتنشد، وترتفع الشمس، وتغدق بالضياء والارتياح على المكان بأكمله، ويبدو كل ما حولنا نضرًا نديًّا زكي الرائحة، وتستعيد الحياة بهجتها، ونصل إلى البيت تعبين جائعين في الوقت المحدد لتناول طعام الإفطار.

الفصل الخامس:

والدي هو جون مارشال كليمنس من فرجينيا، ووالدتي جين لامبتون من كنتاكي. تزوج والدي بوالدتي في عام 1823 في لكسنغتون وهي في العشرين من العمر، وكان هو في الرابعة والعشرين. لم يكن أيّ منهما يملك الكثير، فهي لم تحضر معها شيئًا غير اثنين أو ثلاثة من العبيد على ما أظن. انتقل الزوجان معًا إلى قرية

جيمستاون الجبلية، حيث ولد إخوتي الكبار في ذلك المكان الذي لا أعرف فيه شيئًا، فقد ولدت في ميزوري بعد ذلك بكثير، وكانت في تلك الأيام ما تزال ولاية جديدة غير معروفة، وليس فيها ما يجذب الناس.

ترك لنا والدي مساحات واسعة من الأرض بالقرب من جيمستاون تتكون من خمسة وسبعين ألف فدان. عندما توفي في عام 1847 كان قد مضى على ملكيته لها عشرون عامًا. كان دائمًا يقول إن تلك الأرض لن ترتفع قيمتها في زمانه، ولكنها ستكون سندًا كبيرًا لأبنائه ذات يوم. لو أني أملك منها الآن حتى لو فدانين فقط لما أصبحت مضطرًّا لكتابة سِيَرٍ ذاتية من أجل لقمة العيش. جيمس لامبتون كان أحب أقارب والدتي إلى نفسها. كان يقول إن داخل تلك الأرض ملايين، وكان يكرر كلمة «ملايين» ويقولها بحماس متقد. صحيح أنه كان يقول هذه العبارة عن كل شيء ويخطئ دائمًا في كل مرة، إلا أنه كان محقًّا هنا، وهذا يؤكد أنّ

الواحد منا إذا جد في محاولاته في استغلال كل ما تقع عليه عينه فإنه سيظفر حتمًا بشيء ما في النهاية.

ظل جيمس لامبتون يحلّق في عالم الأحلام طوال حياته، وفي النهاية مات دون أن يتحقق له حتى حلم واحد. في عام 1884 رأيته للمرة الأخيرة. كان العمر قد تقدم به وكان رأسه قد شاب. وقد احتفى بي بالطريقة القديمة ذاتها التي كان يتبعها دائمًا في شبابه. كان ما يزال في عينيه شعاع من السعادة وفي قلبه أمل، وكان ما يزال حتى ذلك الوقت قادرًا على أن يشاركني كنوز الحياة الخفيةَ الغامضة.

الفصل السادس:

اشترى والدي حوالي 100,000 فدان في صفقة واحدة. ومن المؤكد أنّ شراء قطعة من الأرض بهذه المساحة الضخمة قد كلفه ما لا يقل عن أربعمئة دولار، وهو مبلغ لم يكن من السهل دفعه في تلك الأيام خلال عملية

واحدة. بعد أن تمت عملية الشراء وقف أبي على باب محكمة جيمستاون وسرّح نظره في كل أجزاء أرضه مترامية الأطراف وقال: «مهما حل بي الآن فسيكون أطفالي في مأمن. لن يمهلني العمر حتى أرى هذه الأرض تتحول إلى ذهب وفضة، لكنّ أولادي سوف يشهدون ذلك». وبهذا، وبأطيب ما يمكن أن يكون في هذه الدنيا من نوايا تجاهنا، فقد أثقل كاهلنا بلعنة تلك الثروة المنتظرة. ورحل عن عالمنا وهو على أتم قناعة بأنه قد فعل بنا خيرًا. لقد كان خطأً موجعًا، ولكنه لم يعرف ذلك أبدًا لحسن الحظ.

كان أخي الأكبر في الرابعة أو الخامسة من العمر عندما تمت تلك الصفقة الكبيرة، وكانت أختي الكبرى طفلة رضيعة. وقد ولد الآخرون بعد ذلك في فترات مختلفة على امتداد عشر سنين. بعد أربع سنوات من شراء الأرض حدثت أزمة اقتصادية كبرى، وكان ذلك في سنة 1834. في تلك العاصفة تلقّى والدي ضربة مدمرة، فبعد أن كان محط احترام

الناس وتقديرهم وموضع حسد الحاسدين لكونه أغنى رجل في المقاطعة، فقد استيقظ فجأة ليجد نفسه قد جرد من كل ذلك، وفقد كل شيء. كان رجلًا معتدًّا بنفسه قليل الكلام، ولم يكن ليعيش على أطلال ماضٍ عتيد منصرم، فيكون موضعًا لشفقة الآخرين. ولذا فقد غادر مع أفراد أسرته وقطع مسافات مضنية نحو ما كان يعرف في ذلك الوقت بالغرب الأقصى، ليصل في آخر المطاف إلى فلوريدا، تلك القرية الصغيرة في ولاية ميزوري. وهناك أدار متجرًا سنوات عدة، ولكنه لم ينل من الحظ شيئًا سوى أنني ولدت له. ثم انتقل بعد ذلك إلى هانيبال ليبرز فيها كموظف في المحكمة التي لم يكن لشخص أن يتخلف عنها إذا استدعي إليها.

لقد ظل يفكر بأرضه حتى وهو على فراش الموت. كان يقول: إنها ستجعلنا جميعًا أغنياء وسعداء. ومات على هذا الاعتقاد.

ونحو تلك الأرض أدرنا عيونًا ملؤها الترقب والانتظار. وطوال ترحالنا في البر وفي

البحار، وفي كل ما شهدنا من يسير العيش وعسيره، كانت تتملكنا عادة قديمة وإيمان يقوى ويضعف، لكنه لا يموت أبدًا؛ في العام القادم سنكون أغنياء، فلم العمل إذن؟ إنه لأمر طبيعي أن تبدأ حياتك فقيرًا، أو أن تبدأها غنيًّا، أمّا أن تبدأ فقيرًا وفي قناعتك أنك ستصبح يومًا ما غنيًّا، فتلك لعنة لن يستطيع أن يتخيلها أبدًا من لم يجربها.

الفصل السابع:

كانت والدتي في الثامنة والثمانين من العمر عندما توفيت في أكتوبر من عام 1890. وهو عمر يكشف مدى بأسها وقوتها، ويكشف عن معركة من أجل الحياة خاضتها وأبلت فيها بلاءً حسنًا، هي التي بلغ جسمها عندما كانت في الأربعين حدًّا من الرقة والضعف جعل من حولها من الناس يعتبرون أنها قد بلغت أسوأ الحالات وأنها قد تموت في أية لحظة. عرفتها جيّدًا في الخمس والعشرين سنة الأولى من

حياتي، ولكني لم أكن أراها بعد ذلك إلا في أوقات متباعدة، فقد فرقت بيننا الحياة طويلًا. وأنا لا أنوي الكتابة عنها هنا لمجرد الكتابة، ولكني أحب الحديث عنها بالفعل.

ما الذي يحل بالصور التي يلتقطها الذهن للآخرين؟ من بين ملايين الصور، تظل صورة والدتي كأول وأقرب صديقة إلى نفسي شديدة الوضوح، صورة تعود إلى زمن بعيد يمتد سبعاً وأربعين سنة. كانت وقتها في الأربعين، وكنت أنا في الثامنة. هي تمسك بيدي، وكلانا جاثٍ على ركبتيه بجوار سرير أخي، الذي كان يكبرني بعامين، وهو ممدد على سريره، قد فارق الحياة، وعيناها تفيضان بالدموع.

كانت والدتي نحيلة ضئيلة الجسم، ولكن كان لها قلب كبير، قلب يتسع لأحزان الجميع، ويتسع لأفراحهم. الفارق الأكبر الذي وجدته بينها وبين بقية الناس ممن عرفت هو أنّ اهتماماتهم كانت قوية فقط تجاه أشياء قليلة ومحدودة، أما هي فقد ظل يشغلها أمر العالم

بأسره بكل ما فيه وبكل من فيه حتى آخر يوم من أيام حياتها. وطوال تلك الحياة التي عاشتها لم يظهر منها اهتمام بأمر أو شخص إلا وكان كاملًا، فهي لم تكن لتهتم بأمر وتترك أمورًا أخرى، أو تهتم بشخص وتهمل الآخرين.

كان اهتمامها بالبشر والحيوان صادقًا ينبع من داخلها، ويحمل الحب والود. وكانت تجد العذر لأكثر الناس فظاظة حتى لو تطلب ذلك أن تختلقه اختلاقًا، فمحبة الآخرين كانت هي القاعدة التي تنطلق منها. لقد جبلت على أن تكون صديقة لكل من حرم الصداقة.

ذات يوم، وبينما كانت تسير في أحد الشوارع في سان لويس، وقع بصرها على أحد سائقي العربات وهو يضرب حصانه على رأسه بمقبض سوطه الثقيل، ففاجأته وأخذت السوط من يده، وانتزعت منه وعدًا بألّا يقسو على حصان بعد ذلك. وهذا النوع من الإجراءات فيما يتعلق بالحيوانات التي تساء معاملتها كان أمرًا مألوفًا لديها مدى العمر، وكانت بحسن

أسلوبها وطيب نيتها تحقق غايتها دائمًا، وأحيانًا كانت تفوز بصداقة الشخص ذاته الذي تتحداه. كانت تتبعها القطط الشريدة والضالة والمؤذية إلى البيت، فتستقبلها. ذات مرة في عام 1845 وصل عدد القطط في بيتنا إلى تسع عشرة قطة، ولم يكن لأيّ منها ميزة أو حسنة واحدة. لقد كانت تشكل عبئًا ثقيلًا علينا وعلى والدتي كذلك، ولكنّ وجودها كان صنيعة الحظ، وهذا يكفي؛ فكان يجب أن تبقى. ومع كل هذا فقد كان وجودها أفضل من عدم وجودها، فالأطفال تلزمهم حيوانات في البيت يلاعبونها ويلاطفونها، إذ لم يكن مسموحًا لنا أن نقتني طيورًا أو حيوانات ونضعها في أقفاص، لأنّ أمي لم تكن لتسمح بأن يُحبَسَ حتى الفأر.

الفصل الثامن:

كان عمري أربع سنوات ونصف السنة عندما دخلت المدرسة. لم تكن توجد مدارس حكومية في ميزوري في ذلك الزمن، ولكن

كانت هناك مدرستان خاصتان، وكان علينا أن ندفع للواحدة منهما خمسة وعشرين سنتًا في الأسبوع، ولم يكن ذلك بالأمر السهل. كانت السيدة هور تتولى تعليم الأطفال في منزل خشبي صغير في آخر شارع مَين من الجهة الجنوبية. وكان السيد سام يعلم الأطفال الأكبر سنًّا في مدرسة أخرى أقيمت على التلة. أُرسلت أنا إلى مدرسة السيدة هور، وما زلت أذكر اليوم الأول لي في ذلك المنزل الصغير بكل وضوح، بعد خمسة وستين عامًا ونيّف.

السيدة هور كانت في أواسط العمر. وهي من نيو إنجلاند، وكانت تحمل معها أساليب تلك المنطقة ومبادئها. كانت تفتتح اليوم الدراسي بالصلاة وتلاوة آيات من الإنجيل، وكانت أيضًا تشرح تلك الآيات في خطاب موجز. في إحدى المرات تحدثت عن العنوان «اطلبوا تأخذوا»، وقالت: إنّ أيّ إنسان يدعو الله بإخلاص ورغبة صادقة أن يعطيه شيئًا فعليه أن يثق كل الثقة بأنه سيجيب دعاءه.

تأثرت كثيرًا بهذه المعلومة وكنت في غاية السرور لما أتاحته من فرص أمامي. فكرت أن أجرب الأمر، فدعوت الله أن يرزقني كعكة زنجبيل. وقد كانت مارغريت كونيمان ابنة الخباز تحضر معها إلى المدرسة كعكة كل صباح. وكانت دائمًا تخفيها عن الأنظار قبل ذلك اليوم، أما في هذه المرة فما إن انتهيت من الدعاء ورفعت رأسي حتى وجدت الكعكة في متناول يدي، ومارغريت تنظر إلى الجهة الأخرى. لا أذكر أبدًا في حياتي كلها بعد ذلك أني سررت لدعاء استجيب لي كما فعلت في تلك المرة. وقد ترسخت عندي القناعة وقتها بأهمية الدعاء والصلاة. فقد كان لدي عدد لا حصر له من الحاجات والرغبات التي لم أكن أستطيع تحقيقها حتى ذلك الوقت، أما وقد عرفت الآن كيف أفعل ذلك فقد قررت أن ألبيها جميعها وأزيدها أيضًا.

ولكنّ هذا الحلم كان كباقي أكثر الأحلام الأخرى في حياتنا؛ لم يتحقق منه شيء. ففي

اليومين أو الأيام الثلاثة التي تلت ذلك، قمت حسبما أظن بما يمكن أن يقوم به أيّ واحد في البلدة من الصلوات والأدعية بكل صدق وإخلاص، ولكنّ ذلك لم يأت بشيء. وأدركت أنّ أقوى الأدعية لم يكن يمكنه زحزحة الكعكة من مكانها مرة أخرى، ووصلت إلى قناعة تامة بأنه إذا ظل الواحد حريصًا على كعكته ولم يغفل عنها فليس عليه عندها أن يأبه لأية صلاة أو دعاء.

شيء ما في الطريقة التي كنت أتصرف بها أزعج والدتي، فأخذتني جانبًا لتتقصى الأمر. لم أشأ أن أكشف لها عما أصابني من تغيّر، فقد كان يؤلمني أن أحزن ذلك القلب الطيب. بكيت كثيرًا، واعترفت لها في نهاية الأمر بأني لم أعد مسيحيًّا. سألتني عن السبب والحسرة تملأ قلبها.

أجبتها بأنني اكتشفت أنّ مسيحيتي لم تكن إلا بمقدار ما كان يتحقق لي من منافع فقط وليس أكثر، وأخبرتها أني لم أعد قادرًا على

احتمال حتى مجرد التفكير في الأمر.

ضمتني إلى صدرها وهدّأت من روعي. واستخلصت مما قالت لي إنه إذا استمر الأمر معي على تلك الحال فإني لن أجد نفسي وحيدًا أبدًا.

لقد عانت والدتي الكثير من المتاعب بسببي، ولكني أظن أنها كانت تجد متعة في هذا. لم يكن الأمر معها كذلك بالنسبة لأخي هنري الذي كان يصغرني بعامين، فهو لم يكن يسبب لها أية مشاكل، وأعتقد أنّ ما كان يتحلى به من طيبة وصدق وطاعة للجميع كان سيصبح عبئًا عليها لولا ما كنت أبثه فيها في المقابل من ارتياح. لقد كانت قيمتي عندها عالية جدًّا. لم أفكر في هذا الأمر مطلقًا من قبل، لكني أراه الآن بوضوح.

الفصل التاسع:

في عام 1949، حين كنت في الرابعة عشرة من العمر، كنا ما نزال وقتها نعيش في هانيبال على ضفاف المسيسيبي في المنزل الجديد الذي كان

قد بناه أبي قبلها بخمس سنين. كان بعض أفراد الأسرة يسكنون في الجزء الجديد من البيت، والباقي في الجزء القديم الذي يتصل به من الخلف.

في وقت من أوقات الخريف أقامت أختي حفلة دعت إليها كل من كان في سن الزواج من أبناء القرية وبناتها. كان عمري أقل بكثير من أن يسمح لي بأن أكون بين الحاضرين. وقد كنت منكمشًا ومنطويًا على نفسي لدرجة كبيرة، ولم أكن أجرؤ على مخالطة الفتيات. ولهذا لم يطلب مني الحضور في أغلب فترات تلك السهرة، فقد كان من المقرر ألا يتجاوز كامل حصتي منها عشر دقائق لا غير، أؤدي فيها دور الدب في مسرحية خيالية قصيرة. وكان يتطلب الأمر أن أرتدي طقمًا صوفيًّا بني اللون عليه شعر كثيف يناسب دور الدب. في حوالي العاشرة والنصف أخبروني بأنه يتعين علي الذهاب إلى غرفتي لارتداء الطقم. وبعد أن شرعت في ذلك غيرت رأيي، لأنني أردت

أن أتدرب قليلًا على الدور، لكنّ الغرفة كانت صغيرة جدًّا، فذهبت إلى منزل كبير على زاوية شارع مين لم يكن يسكنه أحد. ولم أكن أعلم بأنّ عددًا من الصغار أيضًا كانوا قد توجهوا إليه لكي يرتدوا ملابسهم التي كانوا سيؤدون فيها أدوارهم.

اصطحبت صديقي ساندي إلى ذلك المكان، وهناك اخترنا حجرة فسيحة فارغة في الطابق الثاني. عندما دخلنا إليها كنا نتحدث، الأمر الذي أثار انتباه فتاتين كانتا شبه عاريتين فيها، وأتاح لهما الفرصة للاختباء خلف أحد الحواجز. كانت ثيابهما وأمتعتهما معلقة على الجزء الخلفي من الباب، لكني لم ألاحظ وجودها.

كان يتوسط تلك الحجرة حاجز قديم فيه ثقوب كثيرة، ولكني لم أعبأ لتلك الثقوب لأني لم أكن أعلم بوجود الفتاتين وراء ذلك الحاجز، فلو أني علمت بذلك لما استطعت أن أخلع ثيابي في ذلك الطوفان الفاضح من ضوء القمر، الذي كان يتدفق علينا من خلال النوافذ التي لم

يكن يحجبها أيّ ستار. لو كنت أعلم بوجودهما لَمُتُّ خجلًا. ووسط جهلي بما كان يدور حولي تجردت من كامل ملابسي وبدأت بالتدرب على دوري. كان يملؤني الطموح، وكنت عازمًا على النجاح. كنت أتقد حماسًا وتصميمًا على تحقيق الشهرة من خلال ذلك الدور، على أمل الحصول على مزيد من الأدوار بعد ذلك، ولذا فقد انكببت على عملي بحيوية وعدَت بمنجزات عظيمة. تحركت نحو الأمام وإلى الخلف على يديّ وقدميّ من غرفة لأخرى، وكان ساندي يهتف لي. ثم مشيت بشكل عمودي، وأصدرت الأصوات التي كنت أظن أنّ الدب يصدرها. وقفت على رأسي، ثم أخذت أثب من جانب لجانب. فعلت كل ما يمكن أن يفعله دب، وفعلت أشياء كثيرة لا يمكن لأيّ دب أن يفعل مثلها أبدًا، أو أن يفكر بفعلها أيّ دب لديه قدر من كرامة. لم يخامرني أيّ شك بالطبع بأني لم أكن لحظتها أجعل من نفسي أضحوكة لأيّ أحد آخر غير ساندي.

أخيرًا، وبينما أنا واقف على رأسي، لبثت قليلًا على تلك الهيئة لأنال شيئًا من الراحة.

وفجأة انفجرت الفتاتان بالضحك من وراء الحاجز، فانهارت كامل قواي وسقط الحاجز تحت ثقل جسدي وهما تحته. وفي غمرة الخوف انطلقت منهما صرختان عاليتان، فتناولت ملابسي وهربت، وخلفي ساندي. ارتديتها في نصف دقيقة وخرجت من الممر الخلفي، وانتزعت من ساندي وعدًا بألّا يخبر أحدًا بما جرى، ثم ذهبنا واختبأنا إلى أن انتهت الحفلة.

كان المنزل في غاية الهدوء حين تجرأت أخيرًا على العودة إليه، وكان الجميع نيامًا. كنت في منتهى الكآبة، وقد انتابني شعور مرير بهول ما ارتكبت. ثم وجدت قطعة من الورق مثبتة على وسادتي كتب عليها: ربما لم تستطع أن تمثل دور الدب، ولكنك استطعت أن تمثل عاريًا بشكل جيد للغاية – أجل، لقد مثلتَ بشكل جيد جدًّا جدًّا!

ولكنّ حياة الأولاد ليست كلها هزلًا

ومزاحًا، فقد تعتريها مآسٍ وفواجع كثيرة. مائة ليلة مرت لم تفارق فيها صورة ذلك السكير مخيلتي وهو يحترق في سجن القرية. مائة ليلة امتلأت بأبشع الكوابيس. كنت أرى فيها وجهه مخيفًا يلتصق بقضبان النافذة، وجهنم الحمراء تستعر خلفه وتتوقد، تمامًا كما رأيته في تلك الواقعة المؤلمة. ذلك الوجه بدا وكأنما يقول لي: «لو أنك لم تعطني علبة الثقاب لما حدث لي هذا، أنت من تسبب بموتي!» لم أكن مسؤولًا عن موته، لأني لم أكن أنوي له الأذى حين ناولته علبة الكبريت، لقد أعطيته إياها عن طيب نية! ذلك المتشرد الذي كان هو من يقترف الذنوب والأخطاء عانى فقط لعشر دقائق، وأنا الذي لم يكن علي من لوم بقيت أعاني لثلاثة أشهر.

خلال سنتين تعرضنا لمأساتين أو ثلاث مآسٍ أخرى، ومن سوء حظي أنني كنت قريبًا جدًّا من تلك الأحداث. وبفضل ما كان لدي من علم وخبرة فقد استطعت أن أتأمل تلك المصائب وأقرأها بشكل أعمق بكثير مما كان

يمكن لشخص من غير المتعلمين أن يفعل. لم يكن لتلك المصائب والمآسي أن تصمد في ضوء النهار، وهذا من الثوابت، فقد كانت تتلاشى وتتوارى مع إطلالة الشمس الزاهية التي تبعث الفرح والسرور في نفسي في كل يوم. لقد كانت صنيعة الخوف والظلام. كان النهار يمنحني البهجة والهدوء، ولكنّ الشعور بالأسى كان يعاودني في الظلام ويتملكني من جديد. لا أظن أبدًا أني حاولت أو أردت طوال فترة الصِّبا أن أعيش حياة أفضل من تلك التي كنت أعيشها في النهار في ذلك الزمن. أما الآن وقد تقدم بي العمر، فليس لي أبدًا أن أتمنى شيئًا كهذا، فما يزال الليل كما كان في ذلك الوقت، يجلب عليَّ إحساسًا عميقًا بالحزن والأسى على ما كان مني من أفعال. وأنا أدرك أنني أصبحت منذ سنوات الطفولة مثل باقي الخلق؛ فما من إنسان على الإطلاق يستطيع أن يكون سليم العقل أثناء الليل.

الفصل العاشر:

التحقت لفترة وجيزة في هانيبال بعضوية إحدى المنظمات التي تدعو إلى الاعتدال في تعاطي الكحول والتدخين، وما إلى ذلك، عندما كنت في حوالي الخامسة عشرة من العمر. وكان علينا أن نقدم وعدًا بعدم استخدام التبغ أثناء مدة عضويتنا. كنا نخرج في مسيرات في عيد العمال مع مدارس الأحد، نرتدي خلالها أوشحة حمراء. وكنا نخرج كذلك في يوم الاستقلال مع مدارس الأحد ومع فرقة المطافئ المستقلة ومع الجنود. ولكن لا يمكنك الحفاظ على منظومة من الأخلاق لدى صبي وإبقاؤها حية بمجرد إشراكه في عرضين فقط من هذه العروض السنوية. فقد استقلت من عضوية تلك المنظمة بعد انقضاء المناسبتين الكبيرتين.

لم أذق طعم السجائر لثلاثة أشهر بأكملها. لا أجد الكلمات التي يمكن أن تصف اللهفة التي كانت بداخلي تجاهها والتي كانت تأكلني أكلًا. لقد بدأت التدخين عندما كنت في التاسعة،

وكنت أدخن سرًّا في أول سنتين، ثم أصبحت أمارس الأمر أمام الجميع، بعد وفاة والدي تحديدًا. في بداية سن البلوغ وفي أواسط العمر كنت أزعج نفسي بين الوقت والآخر ببعض المحاولات للإصلاح من شأني وسلوكي. ولم أجد أية فرصة أو مناسبة كي أبدي فيها ندمي على تلك المحاولات بعد ذلك، لأنّ ما كانت تكافئني به الرذيلة من لذة ومتعة كلما عدت إليها كان دائمًا يعوضني عن كل ما دفعته من ثمن في تلك الإصلاحات.

الفصل الحادي عشر:

أحد الأحداث المثيرة التي حدثت في قريتنا كان قدوم طبيب مختص في التنويم المغناطيسي. فقد جاءنا شخص يدعى سيمونز، وكان ذلك في عام 1850 على ما أظن، وأعلن للجميع عن العروض التي كان سيقدمها، ووعد الناس بأشياء مذهلة. كانت تكلفة الدخول خمسة وعشرين سنتًا للكبار، أما فيما يتعلق بالأطفال

والزنوج فقد كانت نصف هذا المبلغ. كان أهل القرية يسمعون عمومًا بالتنويم المغناطيسي، ولكنهم لم يشاهدوه على أرض الواقع قبل ذلك. لم يكن هناك كثير من الحضور في الليلة الأولى، لكنّ الناس في اليوم التالي أصبحوا يتحدثون بالأعاجيب، واستمرت العروض أسبوعين متتاليين جمع خلالهما الطبيب كثيرًا من المال. كنت في ذلك الوقت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، أي في عمر يفعل فيه الصبي كل ما في وسعه في العادة كي يجلب انتباه الآخرين. فعندما شاهدت الأشخاص الذين كان الطبيب يجرب الأمر عليهم يؤدون أدوارهم على المنصة بتلك السخافة ويجعلون الناس يضحكون ويهتفون وينجذبون إليهم تولدت لدي رغبة ملحّة بالوجود على تلك المنصة.

كنت أجلس في كل ليلة في الصف الذي يجلس فيه المترشحون على المنصة، وأمسك بالقرص السحري بيدي وأنظر إليه، وأحاول أن أنام. ولكني كنت أخفق في ذلك وأظل

بكامل يقظتي. وفي الليلة الرّابعة لم أعد قادرًا على مقاومة تلك الرغبة، فبعد أن أمسكت بالقرص لبرهة من الوقت تظاهرت بالنعاس وبأني بدأت أغفو. وعلى الفور جاء الرّجل إليّ وقام بإحداث إشارات بيديه فوق رأسي. ثم أخذ القرص بين أصابعه وخاطبني قائلًا إني لن أكون قادرًا على إبعاد بصري عنه مهما حاولت ذلك. نهضت من مكاني ببطء وتبعت ذلك القرص في كل أنحاء المكان، تمامًا كما شاهدت الآخرين يفعلون. وبعد ذلك أخضعني لبعض الاختبارات الأخرى. وبحسب الإيحاءات فقد كنت أهرب من أفاعٍ وألقي دلاء في النار، وأعاشر فتيات خياليات، وأصطاد سمكًا من المنصة، وغير ذلك. كنت حريصًا ومتيقظًا في البداية حتى لا يكتشف الطبيب أني كنت فقط أمثل الدور تمثيلًا فيطردني من المنصة، وأخرج مكللًا بالخزي والعار. ولكن عندما أدركت بأني أصبحت بعيدًا عن الخطر صرت أرى أكثر مما كان ينتظر مني أن أرى، وأصبحت أضيف

تفاصيل جديدة من عندي.

خاطب الطبيب الحاضرين قائلًا: أما وقد علمتم مدى التقدم المذهل في هذه الحالة التي يمثلها هذا الفتى، فإني أؤكد لكم أنه قد فعل ما أمرته بفعله روحيًّا وعقليًّا بمنتهى الدقة، دون أن أتفوه بكلمة واحدة لمساعدته في ذلك.

لقد أصبحت بطلًا في ذلك الوقت، وإلى الآن لم أحس بسعادة كتلك التي أحسست بها وقتها. أما الإيحاءات العقلية فقد تلاشى خوفي منها. فإذا فشلت بعمل شيء من الأشياء التي كان يرغب الطبيب أن أفعلها قمت بفعل شيء آخر غيره يكون بنفس القيمة. لقد كنت مصيبًا في ذلك، والطبيب أيضًا لم يكن بالشخص الغبي، فقد كان دائمًا يتظاهر بأني أقوم بعمل ما يأمرني به.

بعد مضيّ أربع ليالٍ أصبحت أمثل الحالة الوحيدة على المنصة، ولم يعد سيمونز يدعو أيًّا من المترشحين الآخرين. أصبحت أقوم بالدور منفردًا في كل ليلة على مدى أسبوعين. وعندما

انتهى عمل الطبيب في القرية لم يكن قد بقي فيها من لا يؤمن بالتنويم المغناطيسي سوى شخص واحد، وذلك الشخص هو أنا. وقد بقيت على عدم إيماني به ما يقارب الخمسين عامًا. وفي الحقيقة فإنه لم يمض وقت طويل حتى بدأت أملّ من انتصاراتي- أقل من ثلاثين يومًا على ما أظن. فالمجد الذي يبنى على أكذوبة لا يفضي إلّا إلى ضيق وهمّ. ما أسهل أن تجعل الناس يصدقون كذبة ما، ولكن كم هو صعب في المقابل أن تعود لتقنعهم بأنها لم تكن سوى كذبة! بعد تلك الحادثة بخمسة وثلاثين عامًا قمت بزيارة والدتي التي لم أكن قد رأيتها قبل ذلك لعشر سنين. حدثت نفسي بالاعتراف لها بتلك الكذبة القديمة، واتخذت القرار بهذا الاعتراف بعد جهد كبير، ثم أخبرتها بالحقيقة.

أجابتني بمنتهى البساطة بأنها لم تصدقني. لم يرضني أن تبوء مصداقيتي بعدم القبول بعد كل ما بذلته في سبيلها. وبقيت أكرر لها بأنه ما من شيء قمت به في تلك الليالي في ذلك الزمن

البعيد إلّا وكان كذبًا وتمثيلًا. هزت رأسها بهدوء، وقالت إنها لا تصدق ذلك. وعلى هذا فقد ظلت الكذبة التي جعلتها تصدقها حين كنت صبيًّا حقيقة مطلقة بنظرها حتى آخر يوم من أيام حياتها. يقول كارليل: لا يمكن لأية كذبة أن تدوم. وهذا يظهر أنه لم يكن يعرف كيف يروي الأكاذيب.

الفصل الثاني عشر:

ترى أين يمكن أن يكون بيلي رايس الآن؟ لقد كان هو ومن معه من أعضاء فرقة المنشدين مصدر فرح وسرور دائم لي، وجعلوا في حياتي بهجة ومتعة. كان ذلك قبل أربعين عامًا. أظن أنهم رحلوا جميعًا دون عودة، ورحلت معهم عروض الزنوج الحقيقية، تلك العروض التي لم يكن لها نظير. تقام حفلات «الأوبرا الجليلة» هنا كثيرًا، وقد شاهدت كل الفصول الأولى من أعمال فاغنر. كنت أستمتع بها غاية الاستمتاع، وكان تأثيرها عليّ دائمًا من القوة بحيث يجعلني

أكتفي تمامًا بمشاهدة فصل واحد منها، وكنت إذا شاهدت فصلًا ثانيًا خرجت منهك الجسد.

أتذكر أوّل عرض غنائي شاهدته في حياتي، وأغلب الظن أنه كان في بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر. كانت فرقة جديدة لم نسمع بها من قبل في هانيبال. وقد جاءت مفاجأة جميلة بالنسبة لنا تلقيناها بكل سرور.

بقيت الفرقة في القرية لأسبوع، وكانت تقدم عروضها كل ليلة. وقد حضر جميع الناس لمشاهدة تلك العروض وأحبوها، ما عدا أعضاء الكنيسة الذين لم يحضر منهم أحد.

الخطة الأصلية التي كانت تعمل الفرقة طبقًا لها ظلت لسنوات عديدة ثابتة ولم تتغير. لم يكن هناك في البداية ستارة على المسرح، فالمنشدون كانوا يأتون مباشرة ويجلسون في مقاعدهم، بين يدي كل واحد منهم آلة موسيقية. وفي وسط المجموعة رجل يرتدي ملابس شديدة الأناقة يستهل الحفل بالعبارة التالية:

«آمل أيها السادة الكرام أن نسعد دائمًا

برؤيتكم وأنتم في أتم الصحة والعافية، وأرجو أن تكون جميع الأمور قد سارت معكم على ما يرام بعد أن كان لنا شرف اللقاء بكم في المرة الماضية».

من هذه النقطة وصاعدًا يبدأ عراك بين الرجلين اللذين يتوسطهما هذا السيد الأنيق، ويزداد هذا العراك بشكل متواصل، وتتعالى الأصوات أكثر وأكثر، ويصل الأمر في النهاية إلى التهديد بسفك الدّماء. وأثناء ذلك يتوسل إليهما ذلك السيد بأن يهدأا ويتصرفا بشكل لائق أمام الناس، ولكن دون جدوى بالطبع. وأحيانًا يستمر العراك لخمس دقائق، ويطلق كل من المتخاصمين في وجه الآخر تهديدات مرعبة، ويكاد أنف الواحد منهما أن يلمس أنف الآخر، لا يفصلهما أكثر من ست بوصات. وأخيرًا يتراجعان إلى الوراء وكل منهما يهدد الآخر ويتوعده بما سيحدث له حين يلقاه في المرة القادمة، ويجلسان في مقعديهما، ولكنهما لا يكفان عن إزعاج بعضهما.

ثم يعلق الرجل الذي يقف بينهما بعبارة يرمي بها إلى تذكيرهما بتجربة خاصة به هو شخصيًّا، وكان ذلك يؤتي ثماره دائمًا. وفي العادة تكون تجربة مبتذلة، وقديمة قِدَمَ أمريكا نفسها.

ولدت هذه الفرقة في أوائل الأربعينات، وقد أظهرت نجاحًا في عملها طوال ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا. وكانت تقدم في رأيي أعلى درجات المتعة وتصل أقصى درجات الفكاهة. ومن المؤسف حقًّا أنها لم تعد موجودة.

وكما ذكرت سابقًا، فإنّ الأشخاص من خارج دائرة الكنيسة هم من كانوا يداومون على حضور حفلات تلك الفرقة التي كانت أوّل فرقة تأتي إلى هانيبال. وبعد مرور عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة أصبح النّاس في أمريكا يعرفون تلك الفرق كما يعرفون يوم الاستقلال، ولكنّ أمي لم تحضر حفلة واحدة منها. كانت في ذلك الوقت في الستين تقريبًا، وقد جاءت إلى سان لويس بصحبة سيدة من نفس عمرها هي العمة بيتسي سميث. كانت العمة بيتسي امرأة

رائعة ومحبوبة لدى الجميع، وكانت من قدامى سكان هانيبال. لم تكن عمة لشخص بعينه، بل كانت بسبب جمال سجاياها ورقّة طبعها تعتبر عمة لكل من كان في تلك المنطقة.

العمّة بيتسي، كوالدتي، لم تشاهد أية حفلة في حياتها على الإطلاق. كانت الواحدة منهما مفعمة بالحياة والنشاط، ولم يكن لتقدّم السن أي تأثير عليهما. وقد كان عندهما ولع بكل ما يبعث على الإثارة، وولع بكل شيء يمكن أن يجد فيه عضو الكنيسة متعة مشروعة. كانت أمي والعمة بيتسي متلهفتين لرؤية أشياء جديدة في سان لويس، وقد طلبتا مني أن أساعدهما في الوصول إلى حيث الإثارة والمتعة المناسبة والمشروعة. وأخبرتهما بأني لا أعرف شيئًا يناسبهما سوى حفلة كانت ستقام في القاعة الكبرى للمكتبة التجارية (المركنتلية) تعزف فيها الموسيقى الإفريقية الأصيلة. راقت الفكرة لهما كثيرًا، وأصبحتا متلهفتين للذهاب. كنت أعلم عندها بأني لم أخبرهما بالحقيقة، ولم تكن

المسألة ذات أهمية عندي، فالأمر لا يستحق عناء محاولة إخبار أشخاص بحقيقة ما في الوقت الذي تعرف فيه أنهم لن يصدقوك رغم كونها حقيقة.

الحفلة كانت لفرقة كريستي، إحدى أشهر وأفضل الفرق في ذلك الوقت. ذهبنا في وقت مبكر، وجلسنا في المقاعد الأمامية. وخلال مدة قصيرة امتلأت جميع المقاعد في تلك القاعة الفسيحة، ووصل عدد الحضور إلى ستمائة شخص. وعندما دخل الزنوج إلى خشبة المسرح بملابسهم الغريبة توقفت السيدتان عن الكلام بشكل شبه تام، فأوضحت لهما أنهم في إفريقيا يلبسون دائمًا مثل هذه الملابس، وقلت إنهما لو نظرتا إلى المكان حولهما فستجدان أفضل الناس في سان لويس بين الحاضرين، ومن المؤكد أنهم ما كانوا ليأتوا لو لم يكن الأمر مناسبًا ومشروعًا.

شعرت العمة بيتسي ووالدتي بالارتياح، وأحسّتا بالسرور لوجودهما في ذلك المكان، دونما أدنى شعور بالخجل من ذلك. وهما

سعيدتان الآن؛ فكل ما كانت الواحدة منهما تحتاجه هو فقط مسوّغ من نوع أو آخر لإراحة ضميرها، وقد ارتاحت الضمائر الآن، ارتاحت لدرجة الموت. باشر الرجل الذي يقف في الوسط دوره، وبدأ بسرد أول طرفة من الطرف القديمة التي كان قد سمعها جميع من في القاعة مئة مرة، باستثناء أمي والعمة بيتسي. خيّم صمت فاتر على جميع الحضور الستمائة. وفجأة، رمت والدتي برأسها إلى الخلف هي والعمة بيتسي وأخذتا تضحكان ضحكًا أدهش ذلك الجمهور الكبير وأمتعه، ووقف وقفة شخص واحد لينظر ويرى من عساه يكون ذلك الذي لم يكن قد سمع بتلك الطرفة بعد. وتواصل ضحك السيدتين، وانضم إليهما في الضحك جميع الحضور، واهتز المكان بضجيج الفرح والبهجة.

لقد سببت والدتي والعمة بيتسي في تلك الليلة نجاحًا باهرًا لفرقة كريستي، فبالقدر الذي كانت جميع الطّرف والنّكات معروفة فيه

لبقية الموجودين كانت في الوقت ذاته جديدة بالنسبة لهما، واستقبلتاها بالضحك المتواصل، وجعلتا المتعة والبهجة تمتد إلى الآخرين الذين غادروا المكان وقد تعبوا من كثرة الضحك. ذهبوا وكلهم شكر وامتنان للسيدتين الطاهرتين النقيتين اللتين أدخلتا إلى نفوسهم المتعبة سرورًا كبيرًا قلّما يدخلها.

الفصل الثالث عشر:

تلقيت مؤخرًا رسالة من إنجلترا من أحد السادة، وهو من المؤمنين بشكل قوي بموضوع فراسة الدماغ. وهذا السيد يبدي استغرابه لكون هذا الموضوع لا يستهويني كما يظهر له بما يكفي لحملي على الكتابة عنه. وقد وضحت له الأمر على النحو التالي:

سيدي العزيز،

لم أقم أبدًا بدراسة موضوع فراسة الدماغ بشكل متعمق، وعليه فأنا لست بالشخص المؤهل لأن يعطي رأيًا في مثل هذه المسألة ولا

بالشخص الذي يحق له ذلك. قبل ثلاثة وثلاثين عامًا، أو أربعة وثلاثين، أجريت اختبارًا صغيرًا في فراسة الدماغ في لندن كي أتعرف إلى الأمر بشكل أكبر. فقد ذهبت إلى فاولر تحت اسم مستعار، وقام بفحص الارتفاعات والانخفاضات في جمجمتي، ثم أعطاني تقريرًا حملته معي إلى البيت وقرأته باهتمام ومتعة كبيرين، تمامًا كما لو كنت سأقرأ تقريرًا لشخص آخر أفترض أنه قد قام بانتحال شخصيتي ولم يكن يشبهني في أي شيء، إذ إنّ النتيجة كانت ستكون واحدة. انتظرت بعدها ثلاثة أشهر، ثم ذهبت إلى السيد فاولر ثانية. ومرة أخرى عدت إلى البيت بتقرير غريب، وكان فيه تفاصيل عدة عن شخصيتي وبالاسم المستعار ذاته، لكنه لم يكن يحمل شبهًا واضحًا مع التقرير السابق. وقد ولّدت لدي هاتان التجربتان وحتى هذه اللحظة اعتقادًا بعدم جدوى مسألة فراسة الدماغ هذه.

قبل أربعين أو خمسين سنة كانت مؤسسة

فاولر وويلز تتسيّد هذه الصناعة في أمريكا، وكان اسمها مألوفًا للجميع. وقد كان كل الباحثين عن الحقيقة في أنحاء البلاد المختلفة يقرؤون منشوراتها ويدرسونها ويناقشونها.
كان أحد أكثر الناس ترددًا على قريتنا خبيرًا رحّالًا من خبراء الفراسة، وكان يعرفه جميع الناس ويحسنون استقباله على الدوام. جمع هذا الخبير أهل القرية وأعطاهم محاضرة مجانية عن العجائب التي تحدث في ذلك الحقل، ثمّ جعل يتحسس رؤوسهم، وبعدها قام بتحديد النتائج، وكان يأخذ خمسة وعشرين سنتًا عن كل رأس. وقد كانت النتائج بشكل شبه دائم مرضية للجميع.

لا أظن أبدًا أنّ ذلك الخبير قد أعطى نتيجة حقيقية ولو لمرة واحدة عن أية شخصية من شخصيات أهل القرية، ولكن من الأفضل الافتراض بأنّ الرجل على قدر من الحكمة بحيث كان دائمًا يرضي الناس بتقارير لو قورن الواحد منها بتقرير عن شخصية جورج

واشنطن لفاقه في النتيجة.

لقد نشأت في هذا الجو من الإيمان والاعتقاد والثقة بالآخرين، وأظن أني كنت ما أزال تحت تأثيره بعد سنوات طويلة حين شاهدت الإعلانات التي كان ينشرها فاولر بين الناس في لندن. كنت مسرورًا لرؤية اسمه، وكنت مسرورًا كذلك لوجود فرصة أقوم شخصيًّا من خلالها باختبار مهاراته. وعدم استخدامي لاسمي الحقيقي يظهر أنّ ذلك الإيمان الذي كان لدي في زمن الصّبا لم يعد بالحجم نفسه الذي كان عليه.

استقبلني فاولر بنوع من الفتور، وتفحّص رأسي بأصابع يده من غير اهتمام، وسمّى لي صفاتي بصوت ضجر. قال إنّ لدي شجاعة مذهلة وجرأة كبيرة، وإرادة قوية وجسارة لا حدود لها. وقد دهشت لسماع ذلك، وسررت به أيضًا. ثم فحص الجهة الأخرى من رأسي ووجد فيها ارتفاعًا كان يسميه «الحذر». وكان هذا الارتفاع عاليًا جدًّا وشاهقًا كالجبل

بحيث إنه أدى إلى تقزيم الارتفاع الخاص بالجرأة فظهر وكأنه مجرد تلة صغيرة مقارنة به. وواصل اكتشافاته، وكانت النتيجة أني خرجت في نهاية الأمر سلبيًا معافى، ولديّ من الصفات العظيمة الجليلة مائة. ولكنها صفات فقدت قيمتها وأصبحت لا تساوي شيئًا، إذ إنَّ كل واحدة منها كانت تقترن في المقابل بصفة ضعف معاكسة لها تجردها من كل ما فيها من قوة وفاعلية.

الفصل الرابع عشر:

لمدة ثلاثين عامًا، كنت أتلقى مجموعة من الرسائل في كل سنة من أشخاص لا أعرفهم، بعضهم يذكرني شخصيًّا، وبعضهم الآخر ممن يذكرني آباؤهم حين كنت صبيًّا أو شابًّا. ولكن هذه الرسائل كانت في الغالب غير مشجعة، إذ لم أتعرف إلى أولئك الغرباء ولا إلى آبائهم، ولم أكن قد سمعت أصلًا بالأسماء التي كانوا يذكرونها لي، ولم يكن للذكريات التي يروونها

لي وجود في حياتي. كل ذلك يظهر لي أنّ القوم إنما كانوا يقصدون شخصًا آخر، معتقدين بطريق الخطأ أنني ذلك الشخص. ولكنني تلقيت صباح هذا اليوم رسالة من رجل يذكر فيها أسماء كانت مألوفة لي أيّام الصّبا. تقول الرسالة:

لا شك في أنك تتلهف لمعرفة من أكون. سأقول لك. كنت أعيش أيام الطفولة في هانيبال في ولاية ميزوري، وكنا أنا وأنت زميلي دراسة في مدرسة السيد داوسن، وكان معنا سام وويل بوين وآندي فوكوا، وآخرون لا أذكر أسماءهم. وقد كنت وقتها أصغر الأولاد حجمًا في المدرسة بالقياس لسنّي، وكانوا يسمونني أليك تونكراي الصّغير.

لا أذكر أليك تونكراي، ولكني كنت أعرف الأشخاص الذين ذكرهم لي، كما كنت أعرف مدمني الخمور في القرية. أتذكر أيام الدراسة

في مدرسة داوسن بكل تفاصيلها. أتذكر تلك الأصوات الهادئة الجميلة التي كانت تأتينا من خلال النوافذ المفتوحة في الصيف. أذكر آندي فوكوا الذي كان أكبر التلاميذ سنًّا، كان رجلًا في الخامسة والعشرين. وأذكر السيد داوسن جيدًا، وابنه ثيودور الذي كان في منتهى الطيبة. لقد كان في الواقع طيّبًا أكثر مما ينبغي بكثير، كان طيّبًا لدرجة تجعلك تنفر منه، ولو سنحت لي الفرصة في ذلك الوقت لتخلصت منه. كنا جميعًا متساوين في تلك المدرسة، ولم يكن للتحاسد مكان في قلوبنا حسبما أذكر، إلّا حين كان يتعلق الأمر بآرْك فوكوا، شقيق آندي. كنا نذهب جميعًا إلى المدرسة حفاة في الصيف بالطبع. كان آرك في عمري نفسه تقريبًا، أي عشر سنين أو إحدى عشرة سنة. في الشتاء كنا نحتمله لأنه كان يلبس حذاءه، فكانت موهبته العظيمة تحجب عن أنظارنا، وبذلك يمكننا نسيانها. ولكنه كان في الصيف محط حسدنا، فقد كان يستطيع أن يثني إصبع قدمه الكبيرة

إلى الخلف ثم يطلقها فتسمع طقطقتها من بعد ثلاثين ياردة. ولم يكن هناك من الأولاد في المدرسة واحد يدانيه في هذا العمل البارع، ما عدا ثيودور إيدي الذي كان يستطيع أن يحرك أذنيه إلى الخلف وإلى الأمام كالحصان. ولكنه لم يكن بالمنافس الحقيقي له، إذ إننا لم نكن نسمع لأذنيه صوتًا حين كان يحركهما كالصوت الذي كنا نسمعه من آرك، ولهذا فقد كانت الأفضلية التامة لصالح آرك فوكوا.

كان جورج روباردز في الثامنة عشرة أو في العشرين من العمر، وكان الطالب الوحيد الذي درس اللاتينية. كان شابًّا رائعًا من جميع النواحي، وكان هو وماري موس عاشقين منذ أن كانا صغيرين. ويأتي الآن السيد ليكمان ليسكن في تلك القرية الصغيرة ويحتل على الفور مركزًا وظيفيًّا مهمًّا ويبقى فيه. جاء إلى القرية بسمعة مميزة كمحام. لقد كان رجلًا متعلّمًا ومثقفًا وشجاعًا حظِي باحترام الجميع. لم يكن ليكمان متزوّجًا. كان نجمه في

صعود، وكان أفضل رجل يمكن أن تحلم به فتاة في القرية كزوج لها. تلك الفتاة الجميلة والزهرة المتفتحة ماري موس نالت إعجابه واستحسانه، فتقدم لطلب يدها، وفاز بها. قال الجميع إنها وافقت على الزواج منه إرضاء لوالديها، وليس لأنها أرادت ذلك هي نفسها. تم الزواج. وأصبح الجميع بعد ذلك يقولون إنه تولى بنفسه مواصلة تعليمها، لأنه كان يعتزم أن يرتقي بها إلى المستوى المطلوب وأن يجعل منها شريكة مناسبة له في الحياة. قد تكون هذه الأشياء صحيحة، وقد لا تكون، ولكنّ الحديث فيها كان ممتعًا، وقد كانت المتعة هي المطلب الرئيس في قرية كتلك. وما لبث جورج بعد ذلك أن رحل إلى منطقة بعيدة، حيث توفي هناك كمدًا وحسرة، كما قال الجميع. ويمكن أن يكون ذلك صحيحًا، فقد كان لديه سبب قوي، إذ لم يكن من السهل عليه أن يجد ماري أخرى في أيّ مكان آخر.

لقد مضى زمن طويل على تلك المأساة

الصغيرة التي لا يعرف بأمرها الآن إلا من امتد به العمر وابيضّ رأسه! توفي ليكمان قبل سنوات طويلة كذلك، لكنّ ماري ما زالت على قيد الحياة، وما زالت جميلة برغم كونها الآن جدة ولديها أحفاد.

جون روباردز كان شقيقًا صغيرًا لجورج. عندما كان في الثانية عشرة من عمره، كان يجوب أرجاء البلاد مع والده في غمرة الاندفاع الذي شهده عام 1849 بحثًا عن الذهب. لا أزال أذكر منظر الرجال وهم يغادرون القرية ويتوجهون بخيولهم نحو الغرب. كنا جميعًا هناك، نراقب المشهد بعيون يملؤها الحسد. وما تزال صورة ذلك الفتى المغرور أمام عيني وهو يركب حصانًا عظيم الحجم، وشعره الذهبي الطويل يتماوج خلف ظهره. وعند عودته بعدها بسنتين كنا جميعًا حاضرين كذلك، نحدق فيه ونحسده. لقد كان يلفه مجد لا تتخيله لكونه قد سافر في أنحاء البلاد. لم يكن وقتها قد ابتعد أيٌّ منا عن القرية أكثر من أربعين ميلًا، لكنّ جون شاهد

القارة بأكملها. لقد دخل مناجم الذهب، دخل تلك الأماكن الساحرة التي تسكن خيالنا. وقد فعل ما هو أروع من ذلك: لقد ركب في السفن! نعم، ركب السفن في المحيط نفسه، وسافر فيها عبر ثلاثة محيطات حقيقية. لقد كنا على استعداد لبيع أرواحنا للشيطان مقابل أن نحظى بفرصة السفر معه.

قبل أربع سنوات التقيت به أثناء قيامي بتلك الرحلة إلى ميزوري. وبدا لي وقتها أنّ السن قد تقدمت به برغم أنه يصغرني قليلًا. كانت هموم الحياة بادية على وجهه. وقد أخبرني بأنّ حفيدته ذات الاثني عشر ربيعًا قد قرأت كتبي، وأنها كانت ترغب في أن تراني. لكنّ تلك الأيام كانت أيام حزن وأسى، فقد كانت الصبية حبيسة حجرتها، وكانت علامات الموت بادية عليها، وجون يعلم بأنها تعيش أيامها الأخيرة. اثنا عشر عامًا! هو العمر ذاته الذي كان فيه جدها عندما انطلق في تلك الرحلة العظيمة. لقد بدا لي وكأني أرى فيها ذلك الصبي ثانية.

كانت تعاني مرضًا في القلب. أيام قليلة بعدها مضت لتحل النهاية، نهاية حياة كانت في غاية القصر.

كان جون غارث زميلًا آخر من زملاء الدراسة حينئذٍ، وكانت هيلين كيرشيفال إحدى أجمل الفتيات في المدرسة. كبر الاثنان وتزوّجا، وأصبح جون من أصحاب المصارف الأثرياء ومن الشخصيات الأولى المرموقة. وقد توفي قبل سنوات عدة، غنيًّا ومحترمًا من قبل الجميع. لقد مات! وهذه هي العبارة التي علي أن أقولها عن كثير من أولئك الأولاد والبنات. أما أرملته فهي لا تزال على قيد الحياة، ولديها أحفاد.

ويل بوين أحد الزملاء الآخرين، وكذلك أخوه سام الذي كان يصغره بعامين. قبل نشوب الحرب الأهلية كان كل منهما يعمل ربان سفينة في سان لويس ونيو أورليانز.وقد مات الاثنان منذ زمن بعيد. عندما كان سام صبيًّا صغيرًا حدثت له مغامرة غريبة، فقد وقع

في حب فتاة في السادسة عشرة، وكانت الابنة الوحيدة لثري ألماني. أراد أن يتزوجها، ولكنه ظن هو والفتاة أنّ الأب لن يكتفي فقط برفض الموضوع، وإنما سيقوم بطرد سام من بيته أيضًا. ولم يكن العجوز ليفعل، غير أنهما لم يدركا ذلك. كان يراقبهما طوال الوقت، ولم يكن يضمر لهما أيّ سوء. وظل الفتى والفتاة يمارسان علاقتهما سرًّا. ولم يمض وقت طويل حتى مات الرجل، وعندما قرؤوا وصيته وجدوا أنه قد ترك كامل ثروته للسيدة صموئيل آي بوين. ثم أوقعا نفسيهما في خطأ آخر، فقد أسرعا إلى كاروندليت خارج المدينة، وجعلا أحد القضاة يزوجهما، ويضع تاريخ الزواج بحيث يكون قبل ذلك بأشهر عدة. وكان لدى ذلك العجوز أبناء إخوة وأبناء أخوات وأقارب، وقد قاموا بتتبع خيوط المسألة وإثبات عملية التحايل، وحصلوا بذلك على الأملاك. ولم يخرج سام من كل هذا إلا بزوجة صغيرة في مقتبل العمر صارت تحت مسؤوليته، وكان عليه أن يؤمّن

لها لقمة الخبز من خلال جلوسه خلف دفة السفينة. بعد انقضاء سنوات عدة تفشى مرض الحمى الصفراء في المنطقة. وفي ذلك الوقت كان سام عائدًا بإحدى السفن من نيو أورليانز مع ربّان آخر، وقد أصيب الاثنان بالمرض، ولم يكن هناك من يتولى القيادة عنهما، فتوقفا على طرف إحدى الجزر في انتظار المساعدة. ولكنّ الموت دهمهما سريعًا، وهما الآن يرقدان في ذلك المكان، هذا إن لم يكن الماء قد اخترق قبريهما وجرف عظامهما بعيدًا، وهو أمر ربما يكون قد حدث منذ زمن بعيد.

الفصل الخامس عشر:

في عام 1845 تفشّى مرض الحصبة في القرية. كنت في العاشرة من العمر وقتها. وقد انتشر الموت بشكل مرعب بين الصغار، ففي كل يوم تقريبًا كانت هناك جنازة، والأمهات في القرية تكاد الواحدة منهن تفقد صوابها من شدة الخوف. كانت والدتي على درجة شديدة

من القلق بشأني أنا وباميلا وهنري، وكانت لا تتوقف عن بذل كل ما في وسعها من جهود مضنية كي لا يصل إلينا المرض. لكني كنت أظن أنها لم تكن مصيبة فيما كانت تفعله. لا أذكر الآن إن كنت وقتها خائفًا من الحصبة أو لم أكن، ولكن ما أذكره جيّدًا هو أني تعبت كثيرًا من كوني مهددًا على الدوام بالموت، وأني سئمت جدًّا من الوضع الذي كنت فيه، وأصبحت أتوق إلى أن ينتهي الأمر بطريقة أو بأخرى وعلى الفور، فقد أفسد عليّ ذلك الخوف أيامي ولياليّ وجرّد حياتي من كل بهجة ومتعة. فقررت أن أضع حدًّا لهذه المسألة بأية طريقة كانت وأنتهي من الأمر كله.

ويل بوين كان مصابًا بالمرض، وكان في وضع خطر، فخطر لي أن أذهب إليه في منزله حتى أصاب بالعدوى وينتقل المرض إليّ. دخلت من الجهة الأمامية وتسللت إلى الداخل عبر الغرف والصالات، وكنت في غاية الحرص على ألّا يكتشف أمري. ووصلت أخيرًا غرفة

ويل في القسم الخلفي من المنزل في الطابق الثاني، ودخلت دون أن يراني أحد. ولكنّ انتصاري لم يتجاوز هذا الحد، فقد أمسكت بي والدته هناك بعد لحظات ووبختني وصرفتني من البيت. رأيت عندها أنه عليّ أن أتصرف بشكل أفضل في المرة القادمة، وقد فعلت. فقد انتظرت في أحد الأزقة خلف البيت، وأخذت أراقب من خلال بعض الشقوق الموجودة في السياج إلى أن اقتنعت بأنّ الأحوال صارت مواتية، فتسللت خلال الساحة الخلفية ثم صعدت عبر المدخل الخلفي ودخلت الغرفة، وبعدها دخلت سرير ويل دون أن يلاحظ وجودي أحد. لا أدري كم من الوقت بقيت في السرير. كل ما أذكره هو أنّ رفقة ويل بوين في ذلك المكان لم يكن لها أية قيمة عندي، لأنّ المرض كان شديدًا عليه ولم يكن يحس بوجودي معه أصلًا. وحين رأيت والدته قادمة إلى الغرفة غطيت رأسي، ولكننا كنا في فصل الصيف وقتها، ولم يكن ذلك الغطاء سوى ملاءة رقيقة،

وكان بإمكان أيّ واحد يرانا أن يعرف بأننا كنا اثنين تحتها. لم يطل بقائي مع ويل، فقد جرتني السيدة بوين خارج السرير واقتادتني بنفسها إلى بيتنا، وكانت تمسك بقبة قميصي ولم تفلتها حتى وضعتني بين يدي أمي، تشكوني إليها وتعبر عن رأيها بصبي على هذه الشاكلة.

وكانت النتيجة إصابة قوية بالحصبة، وضعتني على أعتاب الموت، وصلت معها إلى حالة كنت أشعر خلالها بأني فقدت الاهتمام تمامًا بكل شيء، وقد كان هذا الإحساس عذبًا جميلًا. لم أجد في حياتي بعد ذلك على الإطلاق متعة توازي تلك المتعة التي عشتها في تجربتي مع الموت.

الفصل السادس عشر:

قبل أيام عدة قرأت مصادفة عبارة من العبارات أعادت إلى ذهني فتاة أحببتها في الماضي البعيد، فشرعت في الحديث عنها. مضى ثمانية وأربعون عامًا لم أشاهدها فيها، ولكن لا

يهم، فقد اكتشفت بأني أتذكرها جيّدًا، وأنها ما زالت تحظى لدي باهتمام قوي برغم تلك المدة الطويلة. لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة بعد حين عرفتها. كان ذلك في وقت من أوقات الصيف، حيث كانت قد سافرت من سان لويس إلى نيو أورليانز عبر نهر المسيسبي لزيارة قريب لها كان يعمل ربّانًا في باخرة اسمها جون جي رو. وقد كنت أعرف العاملين على متن تلك الباخرة معرفة قوية، لأني عملت في حجرة القيادة فيها فترة من الزمن. كانت مخصصة للشحن، غير أنها كانت تحمل دائمًا عددًا من المسافرين دون أي مقابل، فقد كانوا ضيوفًا لدى القبطان، ولكنّ المسؤولية تقع عليهم، وليس على أيّ شخص آخر في حال حدث لهم أيّ مكروه.

كان المركب قديمًا يبعث السرور في النفس، وكان ظهره شديد الاتساع، وعلى هذا فقد كان المكان المناسب للرقص تحت ضوء القمر في الليل، واللهو والمتعة في النهار، وهذه الأشياء

كانت تحدث دائمًا. كان ذلك المركب بطيئًا في سيره، وكان هذا يضفي عليه سحرًا وجمالًا. وقبطان السفينة اسمه مارك ليفينوورث. كان رجلًا عملاقًا، كريمًا طيب القلب، وهذا شأن العمالقة دائمًا. شقيقه زيب كان عملاقًا آخر أيضًا وبالصفات ذاتها، وحين كان يضحك يصل صوت ضحكته من فكسبورغ إلى نبراسكا. وهو أحد ربابنة السفينة، وكذلك بيك جولي.

جولي كان شخصًا شديد الأناقة واللباقة والذكاء، وكان حلو المعشر مرهف الحس، ذا شخصية أشبه بشخصية الدوق في طريقة تعامله مع الناس. كان جميل الخلقة يسرّك منظره. ولكنّ الأمر مختلف الآن، فعندما التقيته قبل أربع سنوات كان شعره قد ابيضّ، ولم يبق منه الكثير، وفي وجهه عدد من الخدود، وعدد آخر من الذقون.

كان جميع العاملين في السفينة أشخاصًا طيبين تفيض قلوبهم بمشاعر الود وحسن المعاشرة، وكانوا بمنتهى اللطف والإنسانية.

لقد نشأوا جميعًا وكبروا كفلاحين في مزارع إنديانا، ونقلوا معهم بساطة الحياة وروحها في الأرياف إلى تلك الباخرة، التي لم تكن ترى فيها أثناء رحلاتها ما يدل على أنها باخرة. لم يكن يحس الواحد أنه في سفينة على الإطلاق، بل كان يحس بأنه يطوف في مزرعة، ولا يمكنك أن تتخيل شيئًا أعذب أو أجمل من هذا في الدنيا.

في هذا الوقت الذي أتحدث عنه الآن كنت متوجهًا إلى براون في سفينة ركاب سريعة اسمها *بنسلفانيا*، بعد أن هبطت من جنة السفينة *جون جي رو*. ووصلت إلى نيو أورليانز في رحلة لا تنسى، فقد اكتشفت أنّ *بنسلفانيا* كانت بجانب *جون جي رو* مباشرة في المرفأ. فتسلقت إلى أعلى الحاجز وقفزت باتجاه جون رو، وهبطت على سطحها الذي كان واسعًا فسيحًا. لقد بدا لي وكأني وصلت إلى بيتي في تلك المزرعة بعد غياب طويل. وكالعادة فقد كانت هناك مجموعة من المسافرين من كلا الجنسين، صغارًا وكبارًا، وكانوا كما اعتدنا أن نراهم أيضًا أناسًا لا تملك

إلا أن تحبهم، تأثروا بطباع أولئك المزارعين في السفينة. ومن بينهم تطل تلك الفتاة النحيلة التي تحدثت عنها في البداية لتداعب بصري، ولتكون حبيبة اختارها القلب من النظرة الأولى بعد أن جاءت من تلك المنطقة البعيدة في ميزوري. كانت فتاة نقية بسيطة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تخرج فيها في حياتها من المكان الذي كانت تعيش فيه. لقد جاءت وهي تحمل معها عذوبة ذلك المكان ونقاءه.

أعتقد أني أستطيع الآن أن أروي ما تبقى من الحكاية بكلمات قليلة جدًّا. فعلى مدار الأيام الثلاثة التي تلت، ما عدا أوقات النوم، بقيت ملازمًا الفتاة، ولم يكن يفصلني عنها أكثر من أربع بوصات. ثم حدث أمر مفاجئ اعترض ما كنا فيه، فقد جاء زيب ليفينوورث إلى السفينة يصيح قائلًا إنّ بنسلفانيا تتراجع عن مكانها، فانطلقت بأقصى ما لدي من سرعة ووثبت وثبة عالية، وتمكنت من تثبيتها، وفعلت كل ما يلزم.

كان اسم تلك الفتاة الساحرة لورا إم رايت.

تمثلت في مخيلتي بكل وضوح، وأنا أكتب عنها يوم السبت الماضي، وقد ختمت بما يلي: «لم أرها بعد ذلك أبدًا. لقد مضى الآن على فراقنا ثمانية وأربعون عامًا وشهر واحد وسبعة وعشرون يومًا، لم نتواصل فيها بأي شكل من الأشكال».

وصلت يوم الأربعاء الماضي إلى البيت عائدًا من فيرهيفين، ووجدت رسالة من لورا. كان وقع تلك الرسالة علي كالزلزال، فبدل تلك الفتاة التي عرفتها في ذلك الوقت، التي لم تكن تحمل من هموم الدنيا شيئًا، برزت أمامي صورة أرملة في الثانية والستين، أتعبتها الحياة وأرهقتها الكروب. كانت تلتمس مني في تلك الرسالة أن أرسل لها مبلغًا من المال تستعين به هي وابنها الذي كان معاقًا بحسب ما ذكرت، وكان عمره سبعًا وثلاثين سنة. كانت تحتاج إلى ألف دولار، وقد أرسلتها لها.

إنه لعالم مخيف شديد القسوة! حين عرفتها في ذلك الزمن كان والدها قاضيًا مهمًّا في إحدى المحاكم العليا، وكان رجلًا غنيًّا بمقاييس ذلك

الزمان. ماذا جنت تلك الفتاة، وأيّ جريمة اقترفت حتى تعاقب بهذا الفقر المدقع في هذا العمر؟!

ويعود الوصال ثانية مع حبيبتي الصغيرة التي كانت في الرابعة عشرة ثم توارت في غياهب ذلك الزمن الطويل. لقد كتبت لي رسالة رائعة جميلة، ووجدت فيها مرة أخرى، وهي في الثانية والستين، تلك الفتاة الصغيرة التي فقدتها في ذلك الماضي البعيد. تلك الرسالة ابتعدت بي كثيرًا في طريق الماضي في تلك اللحظات التي صرتُ خلالها أعيشه ثانية، وتوارى كل ما كان يفصل بيني وبينه من سنين. عندما قرأت ما تبقى من رسالتها أصبت بصدمة، وبدا لي كأنّ الكلمات كانت من شخص آخر:

لكنني لا أريد أن أتعبك ولا أريد أن أضيع وقتك الثمين. لقد نسيت في الواقع أنني أكتب إلى أحد أشهر الشخصيات في العالم وأكثرها قبولًا بين الناس.

إذن فأنا في نظر لورا بطل! لم أتخيل هذا الأمر مطلقًا، فقد يكون الواحد منا بطلًا في نظر الآخرين، وبطريقة ما يمكنه أن يستوعب ذلك أو يصدقه على الأقل، أما أن يكون بطلًا بالفعل في نظر إنسان حميم أو صديق مقرّب فأنا على يقين بأنّ هذا شيء لم يستطع أن يحققه بطل حتى الآن.

الفصل السابع عشر:

لم يقتصر التعليم الذي تلقيته على المدارس الحكومية في هانيبال فحسب، بل تعلمت الكثير أيضًا في مكتب الصحيفة التي كان يملكها أخي أوريون، والذي كان الابن البكر للعائلة. عندما كان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أرسله أهلي إلى سان لويس، وهناك تعلم مهنة الطباعة. كان من صفاته الحماسة والتلهف. فقد كان يستيقظ كل صباح، وهو متحمس لمسألة ما أو لأخرى، وهذا الشعور كان يحركه طوال اليوم، ثم لا يلبث في الليل أن ينقضي ويموت، ليجد

أوريون نفسه في صباح اليوم التالي، وقبل أن يرتدي ملابسه، يشتعل لهفة وحماسًا لأمر آخر مختلف تمامًا. وهناك صفة أخرى من صفات أوريون لا أريد أن أنساها، كانت شديدة الوضوح عنده، وهي اليأس المتكرر الذي كان يلازمه بقوة في كل يوم، جنبًا إلى جنب مع صفة التلهف والحماسة. وعلى ذلك فقد كان يومه من طلوع الشمس وحتى منتصف الليل مقسّمًا بين شمس متألقة تأتي أولًا، وبين غيوم سوداء تتبعها. أظن أنه كان أكثر الناس في هذا العالم ابتهاجًا وأملًا في كل يوم، وأظن أنه كان في كل يوم أيضًا أشدهم بؤسًا وتعاسة.

انضم أوريون إلى عدد من الكنائس الواحدة تلو الأخرى، وعمل مدرسًا في مدارس الأحد. كان يغير المدرسة في كل مرة يغير فيها مذهبه. وكان يغير اتجاهاته السياسية أيضًا، فاليوم مؤيد للثورة على إنجلترا، وفي الأسبوع القادم تجده ديمقراطيًا، وفي الأسبوع الذي يليه يتبنى أيّ جديد في السوق السياسية. كان دائم التنقل بين

المذاهب مدى حياته الطويلة، يستمتع باختلاف المشاهد الدينية. وبرغم ذلك فإنّ استقامته لم تكن محل شك على الإطلاق، وكانت مبادئه سامية على الدوام لا تتزعزع أبدًا. تستطيع بكلمة واحدة أن تحطم معنوياته وتنزل بها إلى الحضيض، وتستطيع بكلمة أخرى أن ترفعها ثانية إلى السماء. يمكنك أن تحطم فؤاده بكلمة تخالفه فيها، ويمكنك أن تجعله بسعادة الملائكة بكلمة أخرى توافقه فيها. كان على الدوام صادقًا نقيًّا لا يعرف غشًّا أو خداعًا، فاضلًا يحترمه الجميع. ولكن فيما يخص المسائل العادية كالدين والسياسة وما شابهها فإنه لم يكن عنده تجاهها إلا ذلك النوع من الإيمان الذي ينهار وينتهي بمجرد أن يعارضه أحد فيه بعبارة واحدة، حتى لو جاءت تلك العبارة من قطة.

كان دائمًا يحلم، فقد كان حالمًا منذ ولادته، وهذه الصفة كانت توقعه أحيانًا في بعض المشاكل. ذات مرة، عندما كان في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، خطرت له

فكرة رومانسية، وهي أن يأتي من سان لويس إلى هانيبال دون أن يخبرنا بذلك، فقد أرادها مفاجأة سارّة للعائلة. ولو أنه أخبرنا مسبقًا بقدومه لأعلمناه بأننا كنا قد انتقلنا من منزلنا، وأنّ طبيب العائلة الدكتور ميريديث، ذلك البحّار العجوز ذا الصوت الخفيض قد حل مكاننا فيه أيضًا، ولعرف كذلك أنّ الحجرة التي كانت فيما مضى حجرته تسكنها الآن شقيقتا الدكتور، وهما عانسان تقدم بهما العمر ولم تتزوجا. وصل أوريون إلى هانيبال عند منتصف الليل، وعندما جاء إلى البيت، توجه نحو الباب الخلفي، وخلع حذاءه وانسل إلى الطابق الثاني، ودخل الغرفة التي تنام فيها العانسان، دون أن يوقظ أحدًا من النائمين. خلع ثيابه في الظلام ودخل السرير، ولاحظ أنه يزاحم فيه شخصًا آخر. لم يتفاجأ كثيرًا بالأمر، لأنه ظن أنّ ذلك الشخص كان شقيقنا بين. كان ذلك في فصل الشتاء، وكان السرير دافئًا مريحًا، وقد زاد من دفئه وجود من ظن أوريون

أنه بين. ودخل دنيا الكرى وهو راضٍ تمامًا عما أحرزه من تقدم حتى تلك اللحظة، ومخيلته تزدحم بالأحلام السعيدة حول ما سيحدث في الصباح. ولكنّ شيئًا آخر كان سيحصل قبل ذلك، وقد حصل الآن. فالعانس التي تعرضت للمزاحمة قبل قليل أصبحت الآن في حالة بين النوم واليقظة، وأبدت احتجاجًا على تلك المزاحمة. تلمست المكان حولها فاصطدمت يدها بلحية أوريون، ومن هول الصدمة صاحت: «هناك رجل!». اندفع أوريون سريعًا خارج السرير، وأخذ يفتش عن ملابسه في ظلمة المكان. لم يأخذها كاملة، فقد أسرع ببعض ما استطاع أن يجده منها نحو الدرج، وتابع طريقه إلى الأسفل. ثم شاهد لهب شمعة أصفر ضعيفًا يرتفع مع الدّرج، وخلفه الدكتور ميريديث. لم يكن على الطبيب ملابس تذكر، ولكن لا بأس، فقد كان جاهزًا بما يكفي لحدث كهذا، لأنه كان يحمل ساطورًا في يده. صاح أوريون مخاطبًا إياه، وبذلك أنقذ نفسه، لأنّ الدكتور ميريديث

استطاع أن يميز صوته. وبعد ذلك أخذ الطبيب يشرح لأوريون ما قد حدث من تغيير بتلك النبرة الخفيضة التي كانت تميز صوته، التي طالما أعجبت بها في صغري، وأخبره بمكان وجود عائلة كليمينس. وختم حديثه بنصيحة لم يكن لها من ضرورة، وهي أنه ينبغي على أوريون أن يتأكد من الأمور مسبقًا قبل أن يشرع في مغامرة كهذه مرة أخرى. وهذه نصيحة ربما لم يكن أوريون يحتاج إليها طوال حياته.

الفصل الثامن عشر:

توفي والدي سنة 1847 في وقت بدأت تتغير فيه أحوالنا، فقد كنا نوشك أن نصير أغنياء ثانية، ونعود ميسوري الحال كما كنا، بعد سنوات من الفقر والعوز جلبها علينا شخص اسمه آيرا ستاوت بسوء فعلته معنا. كان والدي قد أقرضه مبلغًا من المال يصل إلى آلاف عدة من الدولارات، وهو مبلغ ليس بالبسيط، فقد كان يعد ثروة في تلك الأيّام. لم يكن قد مضى

وقتها على تعيين أبي كاتبًا في محكمة الإشهاد سوى فترة قصيرة. ولم يكن هذا النجاح البسيط مرضيًا لنا وملبيًا لطموحاتنا فحسب، ولكنه أيضًا جعل والدي يحظى باحترام وإجلال كبيرين في المنطقة كلها، وقد اعتبر الجميع أنه سيحتفظ بذلك المنصب حتى آخر يوم في حياته. ذهب والدي إلى عاصمة بالميرا في أواخر شهر فبراير، وكانت تبعد اثني عشر ميلًا. وبينما كان في طريق عودته على ظهر الجواد هبّت عاصفة شديدة البرودة، وابتل جسمه كاملًا، ووصل إلى البيت وهو يكاد يتجمد من البرد. وفي الرابع والعشرين من مارس فارق الحياة.

وبذلك فقد حُرِمْنا من الثروة الكبيرة التي كنا ننتظرها، ووجدنا أنفسنا مرة أخرى بين أنياب الفقر. وهذا ما يحدث في العادة في مثل هذه الأحوال.

لم يعد أوريون إلى هانيبال إلا بعد مرور سنتين أو ثلاث سنوات على وفاة والدي، حيث ظل في سان لويس. كان يعمل طبّاعًا هناك،

وكان ينفق من أجرته على والدتي وعلى أخي هنري الذي كان يصغرني بعامين. وكانت أختي باميلا تساهم معه في نفقات البيت من خلال ما كانت تجنيه من تعليم التلاميذ على آلة البيانو. كانت الأمور تجري معنا على هذا النحو، ولم يكن ذلك بالشيء الهيّن على الإطلاق. وبالنسبة إلي فأنا لم أكن أشكل أيّ عبء على العائلة، فقد أخرجوني من المدرسة مباشرة بعد وفاة والدي، وأرسلوني للتدرب على الطباعة في مقر صحيفة *هانيبال كوريَر*. وقد سمح السيد أيمنت، وهو محرر الصحيفة ومالكها، بأن يخصص لي ما يخصص في العادة للموظف المتدرب، أي طعام ولباس، وليس نقودًا. كانت الملابس عبارة عن بذلتين في السنة، إحداهما كانت تخفق دائمًا في أن ترى النور، أما الأخرى فلم يكن السيد أيمنت ليشتريها لي أبدًا طالما كانت ملابسه القديمة صامدة ويمكنها أن تؤدي الغرض. كان حجمي فقط بنصف حجم السيد أيمنت، ولذلك فقد كانت أقمصته تخلق لدي إحساسًا

غير مريح بأني أعيش في خيمة.

الفصل التاسع عشر:

في السنة الأولى من الفترة التدريبية التي أمضيتها في مكتب صحيفة كورِيَر قمت بفعلة لا أزال أحاول منذ خمسة وخمسين عامًا أن أندم عليها. كان ذلك ذات مساء في أحد أيام الصيف. وكان الطقس مثاليًّا وعلى أفضل ما يكون بالنسبة للأولاد للذهاب إلى الأنهار للتنزه وممارسة مختلف أشكال اللهو. ولكنني كنت ممنوعًا من الخروج، فقد ذهب الجميع للاستمتاع بعطلتهم، وبقيت أنا وحيدًا وحزينًا. لقد اقترفت جريمة من نوع ما، وكانت سببًا في هذه العقوبة التي قضت بأن أحرم الإجازة وأقضي المساء وحيدًا أيضًا. ولكن كان لي هناك عزاء وحيد، وكان عزاءً كبيرًا طوال مدة وجوده، وهو عبارة عن نصف بطيخة طويلة، كبيرة الحجم وحديثة القطف، وكانت حمراء ناضجة. أخرجت كل ما بداخلها بالسكين

وأودعته معدتي التي امتلأت به حتى بدأت عصارته تخرج من أذني. وبقيت القشرة، جوفاء فارغة. لم أشأ أن أضيع تلك القشرة، ولم أستطع في الوقت ذاته أن أفكر بأية طريقة يمكن أن أستخدمها بها فتكون مصدرًا للتسلية والترويح عن النفس. كانت النافذة مفتوحة وتطل على رصيف الشارع الرئيس من على ثلاثة طوابق. كنت أجلس خلفها، فخطر لي أن ألقي القشرة على رأس أحدهم. كنت أدرك أنّ مثل هذا التصرف لن يكون من الحكمة بمكان، فأنا كنت سأحظى بقدر وافر من المتعة والتسلية، ولكنّ الأمر لن يكون كذلك على الإطلاق بالنسبة للطرف الآخر. وبرغم ذلك فقد قررت أن أجازف.

بدأت أنظر من خلال النافذة وأترقب مرور الشخص المناسب، شخص يمشي وكله شعور بالأمان. ولكنه لم يأت. وأخيرًا جاء ذلك الشخص المناسب. لقد كان أخي هنري، وهو أفضل صبي في المنطقة كلها، لم يؤذ أحدًا في

حياته على الإطلاق. لقد كان يتدفق طيبة، ولكنّ طيبته لم تصل إلى الحد الذي كان يمكنها معه أن تنقذه مني هذه المرة. ترقبت وصوله بلهفة. كان يمشي ببطء ويحلم حلمه الصيفي الجميل، وعندما صار تحت النافذة تقريبًا لم أعد أرى من جسمه من ذلك المكان المرتفع سوى طرف أنفه وقدميه. فأمسكت بالبطيخة، وقدرت اللحظة المناسبة لتلك المسافة، وجعلت الجزء الأجوف منها إلى الأسفل، ثم تركتها تسقط.

أصبت هدفي بشكل تفوق دقته التصور، فقد هبطت القشرة على أعلى رأسه مباشرة. أردت بعدها أن أنزل إليه وأعتذر منه، ولكنني كنت أدرك أني لن أكون في مأمن، إذ كان سيعرف عندها بأني الفاعل. مضى يومان أو ثلاثة أيام لم يقل خلالها شيئًا عن هذا الحدث، وبقيت أراقبه طوال ذلك الوقت لكي أتجنب الوقوع في الخطر، ولكنه جعلني أقتنع بأنه لم يكن يشك بي، فوقعت في الفخ.

لقد أخطأت، فقد كان هنري ينتظر الفرصة

المناسبة، وعندما جاءت تلك الفرصة قام بإسقاط حجر عليّ أصاب أحد جانبي رأسي وتسبب لي بورم كبير، جعلني لفترة من الوقت أرتدي قبعتين معًا. أخبرت أمي بهذه الجريمة، فقد كنت أجهد نفسي دائمًا للإيقاع بهنري معها ولكني لم أكن أنجح في ذلك مطلقًا، فظننت بأنّ الأمر سيكون سهلًا هذه المرة بكل تأكيد. كشفت لها عن الورم وجعلتها تشاهده، فقالت: «إنّ المسألة بسيطة»، ولم تشأ أن تتحرى الظروف التي أحاطت بهذه الواقعة. كانت تعلم بأني كنت أستحق ما حدث لي، واعتبرت أنّ أفضل ما يمكنني فعله هو أن أتقبل الأمر كدرس شديد الأهمية، وأستخلص منه العبرة والفائدة.

حوالي سنة 1849 أو 1850 أنهى أوريون ارتباطه بدار الطباعة في سان لويس، وجاء إلى هانيبال، واشترى صحيفة أسبوعية تسمى *هانيبال جورنال* بخمسمائة دولار نقدًا. ثم جعلني أترك العمل في صحيفة كورِيَر، وأعمل عنده مقابل ثلاثة دولارات ونصف دولار في

الأسبوع، وكان هذا أجرًا مرتفعًا جدًّا، فقد كان أوريون كريمًا مع الجميع دائمًا، إلّا مع نفسه. ولكن لم يكلفه الأمر شيئًا فيما يخص أجرتي، لأنه لم يتمكن أبدًا من أن يعطيني ولو فلسًا واحدًا طوال فترة وجودي معه. ومع نهاية السنة الأولى وجد نفسه عاجزًا عن دفع أجرة المكتب، برغم أنها كانت بسيطة، لكنها لم تكن بسيطة بما يكفي، فهو لم يكن قادرًا على دفع أية أجرة مهما كانت صغيرة، ولذا فقد قام بنقل كل تجهيزات ولوازم الصحيفة إلى البيت. لقد جعل تلك الصحيفة تستمر لأربع سنوات، ولا أدري كيف استطاع أن يفعل ذلك طوال تلك المدة. وفي النهاية تنازل عنها لصالح السيد جونسون الذي كان قد أقرضه المال في الأصل لشرائها، وذهب إلى موسكاتين في آيوا، حيث اشترى هناك حصة صغيرة في جريدة أسبوعية.

لم أشارك في مشروع موسكاتين، فقد غادرت المنزل ذات ليلة وانطلقت إلى سان لويس قبل أن يحصل ذلك، وأظنه حصل في عام 1853. في

سان لويس عملت في جريدة *أخبار المساء* لمدة من الزمن ثم بدأت رحلاتي لمشاهدة العالم. كانت مدينة نيويورك هي العالم، وكان فيها معرض دولي صغير. وصلت إلى المدينة، وكان في جيبي دولاران أو ثلاثة دولارات وورقة أخرى من فئة العشرة، أخفيتها في بطانة سترتي.

في نيويورك وجدت عملًا بأجر زهيد جدًّا، لم يكن يسد أكثر من حاجتَي الملبس والمسكن. وبعد ذلك بمدة بسيطة ذهبت إلى فيلادلفيا، وعملت فيها لبضعة أشهر. وأخيرًا قمت برحلة إلى واشنطن لمشاهدة ما فيها من مواقع ومعالم. في عام 1854 عدت إلى وادي الميسيسبي، وعملت في مكتب صغير للطباعة في كيوكوك في آيوا، وكان أوريون قد غادر تلك المنطقة قبل عامين من ذلك. ثم عملت على متن سفينة عمومية سريعة بين نيو أورليانز وسان لويس كان اسمها *بنسلفانيا*. وقد كنت في نيو أورليانز عندما انفصلت لويزيانا عن الاتحاد في السادس والعشرين من يناير عام 1861، وفي اليوم التالي

لذلك الحدث انطلقت نحو الشمال.

كان أوريون يمر بمشاكل مالية كبيرة في هذا الوقت، وقد بدأت أنا أتقاضى أجرًا يصل إلى مئتين وخمسين دولارًا في الشهر في عملي كقائد سفينة. وصرت أدعمه بالمال، وبقيت على ذلك حتى وجد له صديقه القديم إدوارد بيتس عملًا كسكرتير في المقاطعة الجديدة نيفادا، وكان بيتس وقتها عضوًا في أول مجلس للوزراء في عهد السيد لنكولن، وقد توجهت مع أوريون إلى تلك المنطقة. كنت أجوب البلاد في البداية بحثًا عن الفضة، ولكني ذهبت في آخر الأمر إلى فرجينيا ستي في نيفادا للعمل في صحيفة *إنتربرايز*، وكان ذلك في أواخر عام 1862 أو أوائل 1863.

كلفتني إدارة الصحيفة بالذهاب إلى كارسون سيتي لإعداد تقارير عن اجتماعات الهيئة التشريعية هناك. كنت أكتب رسالة واحدة في الأسبوع، وكانت الرسالة تظهر في الصحيفة كل يوم أحد. وبسببها كانت تتوقف

الإجراءات التشريعية في اليوم التالي نتيجة لشكاوى الأعضاء الذين كانوا يردون على أسئلة المراسلين بطريقة غاضبة ويصفونهم بعبارات غريبة طويلة، لأنهم لم يجدوا عبارات أقصر منها. وحتى أوفر عليهم الوقت فقد بدأت بعد ذلك بمدة قصيرة بتوقيع الرسائل باسم مارك توين، ومعناه «قامتان»، وهما تساويان اثنتي عشرة قدمًا، وكان النوتي في نهر الميسيسبي يطلق هاتين الكلمتين، أي مارك توين، إعلانًا منه عن عمق الماء.

بعد عامين من العمل لدى صحيفة *إنتربرايز* توجهت غربًا نحو كاليفورنيا.

الفصل العشرون:

في سان فرانسيسكو بدأت بالعمل كمراسل لدى صحيفة *مورننغ كول*. وفي الواقع كنت أكثر من مجرد مراسل عادي. لقد كنت أنا المراسل الوحيد في الصحيفة ولم يكن يوجد فيها واحد غيري. كان يكفي شخص واحد

للقيام بالعمل، مع أنّ حجم العمل كان يتجاوز قليلًا طاقة موظف بمفرده، ولكن ليس لدرجة تستوجب أن يكون هناك موظف آخر حسبما كان يرى السيد بارنز، فقد كان هو مالك الصحيفة، وعلى ذلك فلم يكن فيها من هو أفضل منه مركزًا ومعرفة للبت في أمر كهذا.

كان عليّ أن أوجد في محكمة الجنح عند التاسعة صباحًا في كل يوم ولمدة ساعة، وأعدّ بيانًا موجزًا عما حدث من شجارات في الليلة السابقة. كان العراك يحدث في العادة بين آيرلنديين وآيرلنديين، وبين صينيين وصينيين، وأحيانًا يكون بين العرقين، وذلك كنوع من التغيير. وكانت الأدلة التي تقدّم في كل يوم هي الأدلة ذاتها التي تقدم في اليوم الذي يسبقه، ولذا فقد أصبح العمل شكلًا من أشكال الروتين القاتل. كانت جميع أخبار المحاكم تأتي في الصحيفة تحت عنوان «يوميات». وقد كانت تلك المحاكم مصدرًا دائمًا للأخبار لا ينضب. وفيما يتبقى من أوقات النهار كنا نبحث عن

المعلومات بشكل دقيق في محكمة الجنح وفي المحكمة العليا، فنجمع ما يمكننا جمعه منها لنملأ به العمود المطلوب. وإذا لم يكن هناك حريق ننقل أخباره كنا نقوم نحن أنفسنا بإشعال حريق ثم نكتب عنه.

في الليل كنا نزور المسارح الستة الواحد تلو الآخر على مدار سبع ليالٍ في الأسبوع وثلاثمئة وخمس وستين ليلة في السنة. كنا نبقى لخمس دقائق في كل مسرح من تلك المسارح، نأخذ لمحة خاطفة عن المسرحيات والأوبيرات ثم نصوغها في شكل مقالي- حسب التعبير الدارج- في كل ليلة، وذلك منذ بداية العام وحتى نهايته. ونحاول أن نجد شيئًا جديدًا نقوله عن تلك الأعمال لم نكن قد قلناه مئتي مرة قبلها.

وبعد عمل شاقّ في جمع ما نحتاج من مادة الكتابة يمتد من التاسعة أو العاشرة صباحًا وحتى الحادية عشرة ليلًا، أتناول قلمي وأصوغ تلك المادة بكلمات وعبارات، وأجعلها تغطي

أكبر مساحة ممكنة. كان عملًا مضنيًا لا روح فيه، يخلو من أية متعة في أغلب الأحيان، إن لم يكن كلها. لقد كان نوعًا من العبودية الشنيعة التي لا يمكن أن يحتملها كسول، وقد خُلِقتُ كسولًا. وأنا الآن لست أكثر كسلًا مما كنت عليه قبل أربعين سنة، والسبب في ذلك هو أني كنت قد بلغت في ذلك الوقت أقصى ما يمكنني أن أبلغه في دنيا الكسل، وليس باستطاعة المرء أن يتجاوز حدود الممكن.

لقد وضعت نفسي قبل أربعين سنة موضعًا كان أرفع درجة مما أنا عليه الآن، فقد شعرت وقتها بعار كبير لكوني عبدًا لصحيفة كصحيفة مورننغ *كول*. ولو كنت في ذلك الزمان أيضًا أرفع مما كنت عليه لاستقلت من ذلك العمل وفضلت الفقر والجوع على البقاء فيه، كأيّ بطل آخر. ولكني لم أخض أبدًا أية تجربة في البطولة. لقد حلمت بها كما يحلم الجميع، ولكني لم أجرب أن أكون بطلًا، ولم أكن أعرف كيف أبدأ، وما كنت لأطيق أن أبدأ بها وأنا أعاني الفقر

والجوع. لقد اقتربت من البطولة مرة أو مرتين في حياتي بشكل فعلي، ولكني عندما أتذكر ذلك لا أجد أية متعة في تذكره. كنت أعرف أني لن أجد عملًا آخر لو استقلت. كنت أعرف ذلك حق المعرفة وأدركه، ولذا فقد عاندت كبريائي واحتملت الأمر، وبقيت حيث كنت، غير أنّ ما كان لدي من اهتمام قليل جدًّا بوظيفتي لم يعد له أيّ وجود الآن. لقد بقيت في ذلك العمل، ولكني لم أظهر أدنى درجة من درجات الاهتمام به، وكان من الطبيعي أن يكون لذلك نتائجه. واستمر الإهمال من جانبي. وكما ذكرت سابقًا فإنّ هذا العمل كان يتطلب من الجهد ما يفوق طاقة موظف واحد. وبحسب الطريقة التي أصبحت أقوم به فيها الآن، فقد ظهر أنّ ذلك الجهد صار يحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الموظفين لكي يؤدوه. وحتى بارنز نفسه لاحظ ذلك، وطلب مني أن آتي بموظف يساعدني وأقتسم الأجرة معه.

كان يعمل في غرفة المحاسبة في الجزء السفلي

من المبنى رجل طلق المحيّا وخدوم، ولكنه محدود الفهم، ولم يكن يحصل في الأسبوع على أجر يستحق الذكر. كان شابًّا تعوزه اللباقة، ولم يكن لديه عاطفة تجاه أيّ شخص أو شيء. كان اسمه سميغي ماك غلورل. عرضت عليه أن يعمل كمساعد لي، وتقبل الأمر بالشكر والامتنان. كان سميغي يؤدي عمله بطاقة تعادل عشرة أضعاف الطاقة التي تبقت لدي. لم يكن شخصًا ذكيًّا، لكنّ العمل في *مورننغ كول* كمراسل لم يكن يتطلب أو يحتاج الذكاء، ولذا فقد كان سميغي ينجز عمله بشكل مثالي. وشيئًا فشيئًا بدأت أترك العمل بشكل أكبر وأكبر لماك غلورل. وصار الكسل عندي يقوى ويزيد. ومرّ شهر على هذه الحال، وأصبح الرجل يقوم بالعمل بمفرده تقريبًا. وصار من الواضح أنه يستطيع أن ينجزه بأكمله وينجز أكثر منه أيضًا، وبالتالي لم يعد بحاجة حقيقية لي.

صرفني السيد بارنز من العمل. لقد كانت هذه هي المرة الوحيدة التي أطرد فيها من العمل

في حياتي، وقد كانت مؤلمة، وكنت سأموت قهرًا. لم يكن فظًّا معي حين صرفني، فالفظاظة لم تكن من طبعه. كان رجلًا ضخم الجثة وسيمًا ذا وجه بشوش، وكان مهذبًا وحسن الهندام. لم يكن ليُسمِع أحدًا أية كلمة قاسية أو يبدي له سلوكًا غير مقبول. أخذني جانبًا وحدثني على انفراد، ونصحني بأن أستقيل من العمل. لقد بدا لي وكأنّ والدًا كان ينصح ولده بما هو خير له. وقد استجبت لنصيحته.

الفصل الحادي والعشرون:

علمت بنبأ وفاة جيم غيليس. فقد توفي منذ حوالي أسبوعين في كاليفورنيا عن عمر ناهز 77 عامًا بعد معاناة طويلة مع المرض.

أعتقد أنّ غيليس كان شخصًا على درجة من التميّز والقدرة تفوق كثيرًا ما كان يظن أهله وأصدقاؤه. لقد كان يتمتع بخيال واسع خصب، خيال من ذلك النوع الذي ينتج لك أعمالًا بمنتهى الروعة والسلاسة، من غير

تحضير مسبق. فهو يبني القصة شيئًا فشيئًا مع سير الأحداث، ولا يهمه إلى أين تمضي تلك الأحداث، يمتعك بكل صورة جديدة تخطر في ذهنه، ولا يهمه مطلقًا ما إذا كانت القصة ستنتهي نهاية قوية ومرضية، أو حتى لو لم تكن لها نهاية. كان جيم ظريفًا بطبعه وفكاهيًّا لدرجة كبيرة. عندما أتذكر كم كان أداؤه قويًّا وناجحًا برغم أنّ ذلك الأداء لم يأت نتيجة لأي شكل من أشكال التدريب، أدرك تمامًا أنه كان سيصبح واحدًا من نجوم الممثلين لو تم اكتشافه وإخضاعه لبضع سنوات من التدريب الأكاديمي. لا أرجح كثيرًا إمكان أن يكتشف عبقري عبقريته بنفسه، ولا إمكان أن يقوم أصدقاؤه باكتشافها كذلك، لأنّ قربهم الشديد منه يجعلهم لا يرونه بوضوح.

لا يمكن لشخص من أبناء مدينة روما ممن لم يخرجوا منها أبدًا أن يحس بالانطباع الحقيقي الذي تتركه كنيسة القديس بطرس من جهة حجمها، برغم أنه يشاهدها دائمًا عن قرب

شديد. هذه المدينة تبدو للغريب حين يراها من مكان بعيد كتلة واسعة لا شكل لها ولا معالم واضحة، وبرغم ذلك فهو الوحيد الذي يشاهد تلك الكنيسة الرائعة تبرز وسطها وتنتصب وحيدة بكل جلال.

أمضيت ثلاثة أشهر في بيت جيم غيليس وبيت صديقه دك ستوكر في جاكاس غلتش، تلك الجنة الوادعة، الحالمة الجميلة. بين كل حين وحين كانت تأتي جيم فكرة ما، فيقف أمام الموقد الذي تشتعل فيه كميات كبيرة من الحطب، ويدخل نفسه في كذبة لم يكن قد أعد لها من قبل، وقد تكون حكاية من حكايات الجن أو قصة غرامية، ويكون في العادة دك ستوكر بطلًا لها. كان جيم يتظاهر دائمًا وبكل هدوء بأنّ ما يسرده لنا إنما هو في الواقع تاريخ حقيقي قد حدث بالفعل، وليس من نسج الخيال. دك ستوكر كان أشيب الرأس طلق المحيّا. كان يجلس ويدخن بغليونه، وينصت بكل أحاسيسه لتلك الأكاذيب الكبيرة ولا

يشكك في مصداقيتها أبدًا.

أوقع ذلك الخيال الخصب جيم مرة أو مرتين في مشاكل. ذات يوم جاءت امرأة هندية وحاولت أن تبيعنا بعض الفاكهة البرية التي كانت تبدو بشكل التفاح. كان دك ستوكر قد عاش قريبًا من تلك المنطقة ثمانية عشر عامًا، وكان يعرف أنّ هذه الفاكهة عديمة الفائدة ولا تؤكل. ولكنه دون قصد أو مبالاة منه بالأمر، ذكر أنه لم يكن قد سمع بها أبدًا من قبل. وكان هذا كافيًا لإثارة جيم، فأخذ يثني على تلك الفاكهة المؤذية، وأصبح إعجابه بها يقوى ويزيد مع زيادة حديثه عنها. وذكر أنه كان قد أكل منها ألف مرة، وأنّ كل ما يحتاج الواحد أن يفعله هو أن يغليها مع قليل من السكر، ولن يجد وقتها في البلاد كاملة ما يفوقها طعمًا. كان يريد فقط أن يسمع نفسه يتحدث. نهض جيم من مكانه ووقف، ولِلَحظة واحدة فقط، وربما لحظتين، وجد نفسه عاجزًا عن الكلام حين قاطعه دك قائلًا بما أنّ الفاكهة شهية إلى

هذا الحد فلماذا لا تشتري الآن بعضًا منها. وقع جيم في الفخ، ولكنه لم يظهر ذلك، فهو لم يكن بالرجل الذي يتراجع أو يعترف. وتظاهر بأنه كان في سعادة غامرة لمجيء هذه الفرصة التي ستجعله يستمتع مرة جديدة بتلك الهبة الإلهية العظيمة. لقد كان رجلًا يقول ويفعل! أظن أنه كان سيأكل تلك الفاكهة حتى لو عرف أنها يمكن أن تؤدي إلى وفاته. ثم اشتراها كلها، وقال بابتهاج وسرور إنه سعيد بوجود تلك الفاكهة المباركة، وإنه إذا لم نرد أنا ودِك أن نشاركه الاستمتاع بتناولها فلنا أن نتركها جانبًا، فهو لن يهتم لذلك.

مرّت بعد ذلك ساعتان من أجمل ما عشت في حياتي كلها. فقد جاء جيم بوعاء كبير جدًّا ووضعه على النار، وملأه بالماء إلى النصف، ووضع فيه كمية من تلك الفاكهة الكريهة، وبمجرد وصول الماء إلى درجة معقولة من الغليان قام بإضافة حفنة من السكر. ومع استمرار غليان الماء كان جيم يتذوق من وقت

لآخر ذلك الشيء الذي كانت رائحته شديدة الأذى. ثم بدأ يجرب طعمه باستخدام ملعقة، فكان يغرف من الوعاء مقدار تلك الملعقة كاملًا ويتذوق، ويقول إنها ما زالت تحتاج قليلًا من السكر، فيضيف حفنة أخرى ويترك الماء يغلي لمزيد من الوقت. واستمر على ذلك، يضيف السكر ثم يتذوق الطعم، ثم يكرر الأمر، إلى أن انقضت ساعتان.

وأخيرًا أعلن أنّ العملية وصلت إلى الدرجة المنشودة، درجة الكمال. وملأ الملعقة وتذوق الفاكهة، ثم راح يطلق عبارات الفرح والامتنان بكل حماس، وبعدها أعطى كلًا منا مقدارًا قليلًا منها لنتذوقه. لم ندرك لحظتها غير شيء واحد، وهو أنّ تلك الكميات الضخمة من السكر لم يكن بمقدورها أن تخفف ولو لأدنى درجة من حدة مذاق ذلك الشيء الذي لم يكن يطاق. هل كان حامضًا؟ أجل، فلم يكن فيه غير الحموضة، ولم يكن فيه أي أثر للحلاوة التي كان يفترض أن تعطيها كل تلك الكميات من السكر لهذه

الفاكهة أيًّا كان نوعها ومن أيِّ مصدر جاءت، اللهم إلا إذا كانت قد نبتت في الجحيم. لم نأكل أنا ودك أيّ شيء منها بعد ذلك، ولكنّ ذلك الشجاع جيم ظل يأكل ويأكل ويأكل، ويثني عليها ويثني ويثني، حتى تهالكت أسنانه وانسلخ الجلد عن لسانه. حمدنا الله كثيرًا أنا وستوكر لأننا لم نأكل منها، وكنا في منتهى السرور. وخلال اليومين التاليين لم يدخل فم جيم أيّ طعام أو شراب. لقد وصلت أسنانه مع شدة الألم درجة لم يكن يحتمل معها أن يلمسها أيّ شيء، حتى أنفاسه كانت تؤلمه حين تصطدم بها. ومع ذلك فقد واصل تعبيره عن الإعجاب بذلك الشيء المرعب دون توقف، واستمر يحمد الله عليه. لقد كان عرضًا مذهلًا من عروض الشجاعة.

فجعت بالفعل لرحيل جيم. لقد كان رجلًا فاضلًا وصديقًا وفيًّا، فيه كل صفات الرجولة والكرم. كان صادقًا شريفًا، وهبه الله من السجايا ما يجعلك تحبه. لم يكن يسعى لأي

شجار أو خصومة، ولكن إذا فرض عليه الأمر وجدته جاهزًا له.

الفصل الثاني والعشرون:

بدأت تجربتي مؤلفًا وكاتبًا في وقت مبكر من عام 1867. في الشهر الأول من ذلك العام جئت إلى نيويورك قادمًا من سان فرانسيسكو، وبعد وقت ليس بطويل، اقترح عليّ تشارلز إتش ويب أن أقوم بنشر كتاب يضم مشاهد مسرحية فكاهية كنت قد أعددتها. عرفت تشارلز كمراسل في صحيفة *ذا بوليتين* في سان فرانسيسكو، وقد أصبح بعد ذلك محررًا في صحيفة *ذا كاليفورنيان*. لقد راق لي ذلك الاقتراح بشكل كبير وأحسست بنشاط يدب في داخلي. وأصبحت لدي الرغبة الكاملة بأن أجرب الأمر فيما لو وجدت الشخص المُجدّ الذي يريحني من عناء جمع تلك المشاهد. لم أرد القيام بالعمل بنفسي، فقد كان هناك بداخلي ومنذ البداية بقعة فارغة كان ينبغي أن يشغلها

الجدّ والمثابرة، ولكنّ هاتين الصفتين كانتا غائبتين.

تولى تشارلز ويب عملية تجميع المشاهد. أتم هذه المهمة ووضع النتيجة بين يديّ. وبعد ذلك ذهبت بهذا العمل إلى مؤسسة الناشر الذي يتعامل معه، وهو السيد كارلتون. وصلت إلى أحد الكتبة، فانحنى باتجاهي من خلال الشباك الذي يجلس خلفه بلهفة وسألني عن حاجتي، وحين عرف أني جئت لأبيع كتابًا، لا لأشتري واحدًا، هبطت حرارة جسمه نحو ستين درجة. طلبت منه أن يسدي لي خدمة، وهي أن يسمح لي بأن أتحدث إلى السيد كارلتون، ولكنه أجابني ببرود قائلًا إن السيد كارلتون موجود في مكتبه الخاص، غير أني تمكنت بعد حين من اجتياز هذا الموظف والوصول إلى قدس الأقداس. آه! الآن تذكرت كيف تدبرت الأمر، فقد كان ويب قد رتب لي مسبقًا موعدًا مع كارلتون. نهض كارلتون من مقعده وقال لي ببرود: حسنًا، هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟

ذكّرته بأنّ وجودي عنده في المكتب كان بناء على موعد قد رتب لي معه حتى أقدم له كتابي ويقوم بنشره. بدأ ينتفخ، وظل ينتفخ وينتفخ وينتفخ حتى صار بحجم واحد من الآلهة من الدرجة الثانية أو الثالثة. ثم تفجرت ينابيع بحره العظيم، ولمدة دقيقتين أو ثلاث لم أعد قادرًا على أن أراه لكثرة الماء والمطر. لم يكن الأمر سوى كلمات، مجرد كلمات، ولكنها وقعت بكثافة شديدة أظلمت الجو من حولنا. وأخيرًا قام بحركة مهمة بيده اليمنى شملت الغرفة بأكملها، وقال:

«الكتب! انظر وستجد في كل مكان حولك كتبًا تنتظر النشر. هل تظن أنه تنقصني الكتب؟ عذرًا، فأنا لست بحاجة للمزيد. أتمنى لكَ صباحًا طيبًا».

مرت إحدى وعشرون سنة قبل أن ألتقي كارلتون مرة أخرى، وكنت أقيم عندها مع عائلتي في لوسيرن. وقد قام بزيارة قصيرة لي،

وصافحني بلطف قائلًا:

«في الحقيقية لستُ بالشخص المهم على الإطلاق، ولكن لدي من المزايا ما أفخر به ويمكنه أن يخلد ذكري: فقد رفضت كتابك، وبذلك فأنا أستحق جائزة الغباء في القرن التاسع عشر دون منازع».

لقد كان جميلًا جدًّا منه أن يعتذر عما فعل، وقد قلت له ذلك. وقلت له أيضًا إني أحببت هذا التصرف منه، لأني كنت في كل سنة من السنوات الإحدى والعشرين تلك أنتزع روحه في خيالي مرات عديدة، وقد كنت أفعل ذلك في كل مرة من هذه المرات بطريقة جديدة تفوق سابقتها قسوة ووحشية، أما الآن فقد أصبح صديقًا مخلصًا لي أحترمه وأقدره، ولن أقتله بعد ذلك أبدًا.

نقلت إلى ويب تلك المغامرة التي حدثت لي مع كارلتون، فقال بشجاعة وتحدٍّ إن الكتاب سينشر برغم أنف كارلتون وكل أمثال كارلتون

في هذا العالم. وقال إنه سيتولى نشره بنفسه، وإني سأحصل على عشرة بالمئة عن كل نسخة يتم بيعها. وقد قام بذلك بالفعل، وخرج لنا بكتاب جميل جدًّا صغير الحجم بلون أزرق وذهبي. وأظن أنه أسماه «ضفدع مقاطعة كالفيراس، وقصص أخرى». وكان ثمن النسخة الواحدة دولارًا وربع الدولار.

في شهر يونيو انطلقت في رحلة قصيرة على متن سفينة كويكر سيتي بغرض التنزه. ولما عدت في نوفمبر وجدت رسالة من مؤسسة النشر الأمريكية في هارتفورد، يعرضون عليّ فيها نسبة خمسة بالمئة من الأرباح عن كتاب أقوم بإعداده، ووصف مغامرات الرحلة فيه. كان هناك خيار آخر، وهو أن أتسلم منهم عشرة آلاف دولار عند تسليم قصتي لهم بدلًا من نسبة الخمسة بالمئة. وقد استشرت في ذلك آي دي ريتشاردسون فنصحني بأن أحتفظ بملكية الكتاب. وأخذت بنصيحته وحسمت المسألة.

كنت أعاني ضيق ذات اليد في ذلك الوقت، فذهبت إلى واشنطن لأرى ما إذا كان بوسعي أن أؤمن قوت يومي هناك بينما أشتغل في إعداد الكتاب. وبالمصادفة التقيت وليام سوينتون، وهو شقيق المؤرخ، وقمنا معًا بوضع مخطط أصبحنا أنا وهو على إثره أول من ابتكر وأسس ما يشيع في عالم الصحافة اليوم من بيع المؤسسات للمواد الإخبارية التي تنشر بعد ذلك في صحف عدة وفي وقت واحد. وقد أنشأنا أول مؤسسة للنشر الصحفي المشترك في العالم. كانت تعمل على نطاق ضيق، ولكنّ هذا أمر عادي بالنسبة لأي مشروع جديد وغير مجرب. كانت تضم قائمتنا اثنتي عشرة صحيفة جميعها أسبوعية، وجميعها من الصحف غير المعروفة التي كانت محدودة الإمكانات، وكانت توجد في مناطق وبلدات متباعدة. لقد كان من دواعي الفخر لتلك الصحف الصغيرة أن يصبح للواحدة منها مراسل في واشنطن، وكان من دواعي السعادة عندنا أن يكون لديهم

ذلك الإحساس تجاه الأمر أيضًا. كانت كل تلك الصحف الاثنتي عشرة تتلقى منا رسالتين اثنتين في الأسبوع مقابل دولار واحد عن كل رسالة، فكان كل واحد منا يكتب رسالة واحدة في الأسبوع، ويرسل منها اثنتي عشرة نسخة إليها، وبذلك نكسب أربعة وعشرين دولارًا ننفقها في أمورنا المعيشية، وهذا كل ما كنا نحتاج إليه في تلك الأحياء البسيطة التي كنا نسكن فيها.

سوينتون كان من أعز وأفضل الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي. لقد عشنا معًا حياة جميلة رائعة، وبقناعة ورضًا لا حدود لهما. كان لطيفًا بطبعه، نشأ وتربى على ذلك، وكان على درجة عالية من التعليم. كان جميل الروح نقي القلب واللسان. وهو من أصول أسكتلندية، وينتسب إلى الكنيسة المشيخية بشكلها الحقيقي الأصلي. كان مخلصًا وصادقًا في تدينه ومحبًّا لدينه، يجد فيه الطمأنينة والسلام. لم يكن يقع في أية رذيلة، اللهم إلا إذا كان افتتانه بالويسكي

الأسكتلندي وحبه الكبير له يمكن أن يسمّى رذيلة. أنا شخصيًّا لم أكن أعتبر شربه له رذيلة، لأنه كان أسكتلنديًّا، والويسكي الأسكتلندي في نظر الأسكتلندي هو كالحليب بالنسبة لباقي البشر في طهارته وخلوه من أي خبث وأذى. لقد كان تعاطيه فضيلة في حالة كحالة سوينتون، ولكنها فضيلة مكلفة، إذ كان يفترض أن يشكل مبلغ الأربعة والعشرين دولارًا في الأسبوع ثروة بالنسبة لنا لولا ما كنا ننفقه في شراء ذلك المشروب الذي لم نكن لنحتمل بسببه أي تأخير في وصول أي جزء من مخصصاتنا، لأنّ ذلك التأخير كان من شأنه أن يزعجنا حتمًا.

أذكر أننا تعرضنا في يوم من الأيام لضائقة مالية، وكان يتعين علينا الحصول على ثلاثة دولارات قبل انقضاء نهار ذلك اليوم. لا أذكر السبب الذي جعلنا نحتاج إلى كل ذلك المبلغ دفعة واحدة، لكن كل ما أذكره الآن هو أنه كان علينا أن نتدبر أمر المال. طلب مني سوينتون أن أخرج وأحاول أن أعود بالمبلغ، وقال إنه

سيذهب هو أيضًا ويرى ما بمقدوره أن يفعل في هذا الشأن. لم يكن يبدو عليه أي شك بأننا سننجح. كنت أعلم بأن ذلك إنما كان من أثر الدِّين الذي يتململ في داخله. لم تكن لدي الثقة ذاتها التي كان عليها، ولم أكن أعرف إلى أي مكان علي أن أتوجه للحصول على النقود، وقد أعلمته بذلك. وأظنه كان يشعر بالعار تجاهي تحديدًا لضعف إيماني. طلب مني ألا أقلق وألا أهتم للأمر، وقال بكل بساطة وبكل ثقة إنّ الله سيرزقنا. كان يؤمن تمامًا بأن الله سيرزقنا، ولكني أظن أنه لو كان قد مر بالتجارب التي مررت بها... ولكن لا عليكم من هذا! ذلك الإيمان الراسخ لدى سوينتون بدأ تأثيره يظهر في نفسي قبل أن ينهي كلامه، وخرجت وأنا شبه مقتنع بأنّ الله سيعطينا بالفعل.

تجولت في الشوارع لمدة ساعة، وكنت أفكر أثناءها بطريقة ما أحصل من خلالها على النقود، ولكني لم أتوصل لأي شيء. ذهبت إلى فندق إيبيت في النهاية وجلست فيه، وبعد ذلك

بقليل جاء كلب من الكلاب. توقف وحدق بي، وقرأت في عينيه سؤالًا يقول: «هل تعامل الآخرين بشكل طيب؟» أجبته بعيني أيضًا بأنني كذلك. هز ذيله مبتهجًا ودنا مني، وأسند رأسه إلى ركبتي، ثم نظر إليّ بعينيه البنيتين بتودد ورفق. لقد بدا لي كالفتاة الجميلة، فقد كان مخلوقًا رائعًا كأنما فصّل كامل جسده من الحرير والمخمل. أمررت يدي برفق على رأسه البني الناعم، وفي الحال أصبحنا حبيبين. بعد وقت قصيرٍ جدًّا جاء الجنرال مايلز بطل المنطقة، وكان يرتدي بذلة نظامية لونها أزرق وذهبي، وجميع الناس يحيطونه بنظرات الإعجاب. حين شاهد الكلب توقف. كان في عينيه بريق يشي بما كان في قلبه من مكان دافئ محب للكلاب من أمثال هذا المخلوق اللطيف. اقترب، وأخذ يربت برفق على جسد الكلب، ثم قال:

«إنه جميل جدًّا. إنه مدهش. هل ترغب في بيعه؟»

تأثرت بشكل كبير عندها، وبدت لي رائعة

تلك الطريقة التي بدأ فيها إيهان سوينتون يثمر.

قلت: نعم.

قال القائد: كم تريد ثمنًا له؟

قلت: ثلاثة دولارات.

بدت الدهشة واضحة على وجه الجنرال وقال:

ثلاثة دولارات؟ فقط ثلاثة دولارات؟ غريب أمرك أيها الرجل، من النادر أن تجد كلبًا بهذه الروعة، ومن غير الممكن أن يقل ثمنه عن خمسين دولارًا. لو كان هذا الكلب لي فلن أرضى بمئة دولار مقابله. يبدو أنك لا تعرف قيمته. يمكنك أن تعيد النظر بالسعر الذي تطلبه إن شئت، فأنا لا أحب أن أظلمك بهذا السعر.

لو كان يعرفني لأدرك أني لم أكن أكثر قدرة على خداعه منه هو على خداعي.

قلت: لا. أريد ثلاثة دولارات فقط. فهذا ما يساويه ثمن الكلب.

قال الجنرال: بما أنك تصر على ذلك فلا بأس

إذن.

أعطاني ثلاثة دولارات واقتاد الكلب بعيدًا، وصعد على الدرج داخل أحد المباني وتوارى عن الأنظار.

وفي غضون عشر دقائق جاء سيد حسن الخلقة متوسط العمر، وجعل يتلفت حوله هنا وهناك وتحت الطاولات وفي كل مكان، فقلت له: هل تبحث عن كلب؟

كان واضحًا عليه الحزن والقلق قبل ذلك، ولكنّ وجهه الآن أشرق بالفرح والسرور. وأجاب:

نعم، هل شاهدته؟

قلت: نعم، لقد كان هنا قبل دقيقة، ثم شاهدته يتبع أحد السادة. أظن أنه يمكنني أن أجده لك إذا رغبت أن أجرب الأمر.

لم أشاهد في حياتي إلا نادرًا شخصًا على تلك الدرجة من الشكر والامتنان التي كان عليها ذلك الرجل في تلك اللحظة. رد علي بأنه يرغب في أن أحاول. وأخبرته بأني سأفعل

ذلك بكل سرور، ولكني قلت له بما أنّ المسألة قد تستغرق بعض الوقت فإني أرجو ألا ينزعج إذا طلبت منه أن يدفع لي بعض النقود لقاء ما سأبذله من جهد. فقال إنه سيعطيني بمنتهى السرور، وكرر كلمتَي «بمنتهى السرور»، وسألني كم أريد.

قلت: ثلاثة دولارات.

بدت عليه علامات الدهشة، وقال:

عزيزي! ما تطلبه قليل جدًّا. سأدفع لك عشرة دولارات وعن طيب خاطر.

قلت: كلا، ثلاثة دولارات هي المقابل المناسب. وتوجهت نحو الدرج الذي صعد عليه الجنرال دون أن أدخل في مزيد من الجدل بهذا الشأن، فقد أخبرني سوينتون بأنّ هذا المبلغ هو الذي سيرزقنا الله إياه، وقد بدا لي أنه سيكون من الخطأ أن آخذ ولو فلسًا واحدًا أكثر مما وعدنا به.

عرفت رقم غرفة الجنرال من الكاتب الذي يعمل في المكتب، وعندما وصلت إلى الغرفة

وجدته يلاعب الكلب. وكان سعيدًا به. قلت له:

أنا آسف، ولكن علي أن أستعيد الكلب.

تفاجأ كثيرًا بالأمر، وكان ذلك باديًا عليه. قال:

تستعيده؟ ولماذا؟ إنه ملكي الآن، لقد بعتني إياه وبالسعر الذي حددته أنت.

قلت: نعم هذا صحيح، ولكن علي أن آخذه لأنّ الرجل يريد أن يسترجعه.

- أي رجل؟

- الرجل الذي يملكه. فالكلب لم يكن لي.

بدا الجنرال أكثر استغرابًا من قبل، وللحظة من اللحظات ظهر وكأنما فقد القدرة على الكلام. ثم قال:

هل تقصد أن تقول لي إنك بعتني كلبًا يملكه شخص آخر وأنت تعلم بأنه لم يكن لك؟

- نعم، كنت أعرف أنّ الكلب ليس لي.

- ولماذا بعته إذن؟

قلت: حسنًا، هذا سؤال دقيق. لقد بعته لك

لأنك كنت تريده. أنت عرضت علي أن أبيع الكلب، لا تستطيع أن تنكر هذا. لم أكن مضطرًّا لبيعه، ولم أفكر بذلك حتى، ولكن بدا لي أنّ...

أوقفني فجأة في منتصف حديثي وقال: أغرب ما سمعت به في حياتي هو مسألة بيعك لكلب لم يكن ملكًا لك...

وهنا قاطعته قائلًا: أنت نفسك ذكرت أن الكلب ربما تساوي قيمته مئة دولار. وأنا طلبت منك فقط ثلاثة دولارات، هل كان في ذلك أي ظلم؟ وقد عرضت علي أن تدفع لي أكثر من ذلك، وأنت تعلم بأنك قد فعلت. ولم أطلب منك أكثر من ثلاثة دولارات. لا يمكنك أن تنكر.

قال: يا إلهي، وما علاقة ذلك بالموضوع؟ حقيقة الأمر هي أنّ الكلب لم يكن ملكًا لك. ألا ترى ذلك؟ من الواضح أنك تظن أنه ما من خطأ في أن تبيع أشياء يملكها آخرون ما دمت تبيعها بثمن قليل. والآن...

قلت: من فضلك لا تجادلني في هذا الأمر

أكثر من ذلك. لا يمكنك أن تتجاهل حقيقة أنّ السعر كان مناسبًا ومعقولًا تمامًا على اعتبار أني لم أكن صاحب الكلب، ولذا فإنّ الجدل بهذا الشأن هو مضيعة للكلمات. عليّ أن أسترجعه لأنّ الرجل يريده. ألا ترى معي أنني لا أملك أي خيار آخر؟ ضع نفسك في مكاني. افترض أنك بعت كلبًا ليس بكلبك. افترض أنك...

قال: يا إلهي! لا تشوش ذهني أكثر مما فعلت ببراهينك وحججك المجنونة هذه. خذه وأرحني.

أعدت له دولاراته الثلاثة، واقتدت الكلب ونزلت به إلى الأسفل، وأسلمته لصاحبه وحصلت على ثلاثة دولارات مقابل الجهد الذي بذلته.

مضيت في طريقي مرتاح الضمير، لأنني تصرفت بشرف ونبل. لم يكن بوسعي أبدًا أن أتصرف بالدولارات الثلاثة التي أخذتها ثمنًا للكلب، لأنه لم يكن لي حق فيها، أما الثلاثة التي حصلت عليها بعد أن أعدته لصاحبه

الحقيقي فقد كانت من حقي، وعلى الوجه الصحيح، لأني اكتسبتها بنفسي. فقد كان من الممكن ألا يستعيد ذلك الرجل كلبه أبدًا لو لم أعده له أنا. لقد ظلت مبادئي إلى اليوم كما كانت في ذلك الوقت ولم تتبدل، فقد كنت صادقًا أمينًا على الدوام، وأنا أعلم أنه لا يمكنني أن أكون نقيض ذلك أبدًا. إنّ المسألة هي كما ذكرت في البداية – فأنا لم أكن على الإطلاق قادرًا على أن أقنع نفسي بالتصرف بمال اكتسبته من خلال أساليب مشكوك في شرعيتها.

وبعد، فتلك هي الحكاية. بعضها صحيح.

الفصل الثالث والعشرون:

في أوائل شهر فبراير من عام 1870 تزوجت من الآنسة أوليفيا إل لانغدون، وانتقلت معها إلى بوفالو في نيويورك. غدًا تحل الذكرى السادسة والثلاثون لزواجنا. قبل سنة وثمانية أشهر، رحلت زوجتي عن هذه الدنيا، وقد حدث ذلك في مقاطعة فلورنسا في إيطاليا

بعد معاناة مع المرض استمرت اثنين وعشرين شهرًا.

شاهدت أوليفيا للمرة الأولى في غرفة أخيها تشارلي في الباخرة كويكر سيتي في خليج سميرْنا، وكان هذا في صيف عام 1867. كانت وقتها في الثانية والعشرين، وقد بدت لي أشبه بتمثال صغير في تلك الغرفة. ورأيتها وجهًا لوجه لأول مرة في ديسمبر التالي في نيويورك. كانت نحيلة الجسد جميلة فتية، تجتمع فيها الفتاة والمرأة معًا، وقد ظلت كذلك حتى آخر يوم في حياتها. ذلك الجسد النحيل الرقيق كان يخفي بداخله نيرانًا لا تنطفئ من العطف والشفقة والتقوى، ومن الحيوية والنشاط والحماس، ومن حب لا ينتهي. كانت على الدوام رقيقة الجسم ضعيفة، ولكنها كانت تحيا بروحها لا بجسدها، تلك الروح التي كانت تحمل من الأمل والشجاعة ما لا حدود له.

بدأت معاناتها مع المرض عندما كانت في السادسة عشرة بعد أن سقطت على الجليد،

وظل جسدها على ما صار إليه من الضعف والوهن حتى آخر أيامها. بعد تلك الحادثة لازمت سريرها سنتين، ولم تكن تستطيع خلال هذه المدة أن تنام إلا على ظهرها فقط. وقد جاء أهلها بجميع الأطباء المعروفين إلى إلميرا الواحد بعد الآخر، ولكن دون نتيجة تذكر. في تلك الأيام كان اسم الدكتور نيوتن معروفًا لكل الناس، وكانوا يعتبرونه مشعوذًا. كان يتنقل في أرجاء البلاد بعظمة وأبهة، كأنه ملك.

ذات يوم جاء أحد أقرباء عائلة لانغدون إليهم في المنزل وقال: لقد جربتم جميع الأطباء، فلماذا لا تجربون الدكتور نيوتن؟ إنه يقيم الآن في فندق وسط المدينة، وهو يأخذ من الأثرياء أسعارًا مخفضة، ولا يأخذ شيئًا من الفقراء. لقد رأيته بنفسي يلوّح بيديه فوق رأس جيك براون ثم يأخذ عكازه منه ويطلب منه أن يذهب، ويمضي جيك بعد ذلك لشأنه سليمًا معافًى وكأنّ شيئًا لم يكن قد حصل له أبدًا. وقد شاهدته يفعل ذلك مع أشخاص آخرين. لنفترض أنه

استخدم أولئك الأشخاص لغرض الدعاية والشهرة فقط وأنّ ما حصل معهم كان مجرد تمثيل، لكنّ ما حصل مع جيك حقيقي وليس تمثيلًا على الإطلاق. أرسلوا في طلب نيوتن.

جاء نيوتن، ووجد الفتاة تنام على ظهرها. كانت أية محاولة لإنهاضها تسبب لها المرض والإعياء، ولذلك لم تكن تلك المحاولات تكتمل. قام نيوتن بفتح النوافذ التي لم تكن قد فتحت لفترة طويلة قبلها، وقام بتلاوة صلاة قصيرة حماسية، ثم وضع ذراعه خلف كتفيها وقال: سنجلس الآن يا ابنتي.

أصاب هذا التصرف أهلها بالذعر وحاولوا إيقافه، ولكنه لم يعبأ لذلك. ساعدها في النهوض، وبقيت جالسة لدقائق عدة دون ألم أو تعب. ثم قال: والآن يا صغيرتي سنمشي لبضع خطوات. وأخرجها من السرير وساعدها في المشي. وبعدها قال: لقد استخدمت أقصى ما لدي من قدرات. لم تشف الفتاة من المرض، ومن غير المحتمل أن تشفى منه في حياتها.

لن يكون بإمكانها أن تمشي لمسافة بعيدة أبدًا، ولكنها بعد شيء من الممارسة اليومية ستصبح قادرة على أن تمشي مسافة مئة ياردة أو مئتين، ويمكنها أن تعتمد على ذلك لبقية حياتها.

الأجرة التي طلبها نيوتن كانت 1500 دولار، وقد كان بكل بساطة يستحق مئة ألف، لأنها ومنذ ذلك الوقت الذي كانت فيه في الثامنة عشرة وحتى بلغت السادسة والخمسين كانت تستطيع دائمًا أن تمشي مسافة مئتي ياردة دون حاجة لأن تتوقف أو تستريح. ولأكثر من مرة شاهدتها تمشي لربع ميل من غير أن تحس بتعب يذكر.

كان يحتشد حول نيوتن كثير من الناس في دبلن ولندن، وفي أماكن أخرى. وكان ذلك يحصل بشكل متكرر في أوروبا وأمريكا أيضًا، ولكن لم يحدث أبدًا أن وجد أي من أفراد عائلتي لانغدون وكليمينس وسط تلك الحشود، وهم الذين لن ينسوا ما فعل ذلك الرجل لأجلهم. ذات مرة وبعد مضي سنوات

التقيت نيوتن وسألته عن سر مهنته، وأجاب بأنه لا يعرف، إلا أنه كان يظن أنّ شكلًا من أشكال الكهرباء ينبعث من جسده ويسبب الشفاء للمرضى.

الصدق المطلق والأمانة التامة سجيتان كانتا متأصلتين في شخصية زوجتي ولدتا معها. كانت الأحكام التي تطلقها على الأشخاص وعلى الأشياء أكيدة لا تخطئ. ولم تكن قدراتها الطبيعية ومواهبها تخونها أبدًا. كانت هناك دائمًا مساحة من المحبة في أحكامها على الأشخاص وعلى التصرفات والأعمال، سواء أكان يتعلق الأمر بالأصدقاء أو بالغرباء، وهذه المحبة ما كانت لتتوقف أبدًا. كنت أقارن بين شخصيتها وبين مئات الشخصيات الأخرى، وأرى أوجه الشبه والاختلاف، وقد استمر لدي الإحساس بعد ذلك بأنها كانت أكثر الناس الذين عرفتهم في حياتي كمالًا. أضف إلى ذلك أيضًا أنه كان لديها من الكرامة ما لم يكن عند أيّ واحد من أولئك الناس.

كانت على الدوام مبتهجة، وكان لديها القدرة على نقل ابتهاجها للآخرين. خلال الأعوام التسعة التي قضيناها في مكابدة الفقر وتحت وطأة الديون كانت تنجح دائمًا في إقناعي بالحجة والمنطق بأنّ يأسي لم يكن له مبرر، وكانت تجد في قلب السواد والعتمة جانبًا مشرقًا وتجعلني أراه. طوال تلك المدة لم أسمع منها ولو كلمة واحدة تتذمر فيها من الظروف التي كنا نعيشها، ولم أسمع كذلك أي شيء من هذا القبيل من أيّ من الأطفال. فقد ربتهم على ذلك، وكانوا يستمدون شجاعتهم منها. الحب الذي كانت تبديه لأولئك الأشخاص الذين أحبتهم كان يتخذ شكل العبادة، وكانوا هم يبادلونها الحب بالطريقة ذاتها أيضًا.

ضحكتها كانت ضحكة صبية يخلو قلبها من الهموم. تلك الضحكة قليلًا ما كانت تأتي، ولكنها إذا أتت كانت تقع على الأذن عذبة جميلة كما تقع عليها الموسيقى. لقد سمعتها للمرة الأخيرة في حياتي عندما كانت ترقد في

سرير المرض لأكثر من عام، ودونت ذلك في مذكراتي – ذلك الشيء الذي لن يتكرر أبدًا!

غدًا تحل الذكرى السادسة والثلاثون لزواجنا الذي تم في بيت والدها في إلميرا في نيويورك. في اليوم التالي ذهبنا في قطار خصوصي إلى بوفالو، حيث كان من المقرر أن أصبح واحدًا من المحررين هناك في صحيفة إكسبرس، وشريكًا كذلك في جزء منها. لم أكن أعرف شيئًا عن بوفالو، ولكني رتبت أمور إقامتنا فيها منذ البداية من خلال صديق لي كنت قد بعثت له برسالة وطلبت منه أن يجد لنا مبيتًا يقدم فيه طعام وشراب، ويتناسب في علو درجته ومستواه مع مستوى راتبي البسيط. وصلنا حوالي الساعة التاسعة ونقلونا من المحطة، وقد بدا لي بعد ذلك أنهم طافوا بنا أمريكا كلها. غضبت كثيرًا من ذلك الصديق لاختياره مكانًا لنا بهذا البعد. ولكن كان هناك شيء ما كانت تعلم به العروس، وأجهله أنا. فقد كان والدها قد اشترى لنا منزلًا جديدًا

بكامل أثاثه في أحد الشوارع المعروفة في المنطقة، واستأجر لنا طبّاخًا وخادمات، وسائق عربة آيرلنديًّا اسمه باتريك مكالير. كان باتريك شابًّا ذكيًّا. ظل يدور بنا في أرجاء المدينة حتى يكون لتلك المجموعة من الأفراد متسع من الوقت للذهاب إلى المنزل وإعداد العشاء لنا. وأخيرًا وصلنا. وحين دخلت ذلك المكان الفخم كان الغضب قد وصل عندي إلى أعلى درجاته، وبلا أيّ تحفظ أعلنت عن رأيي أمامهم بذلك الصديق الذي كان من الغباء بحيث جعلنا في مكان على مسافة كهذه. بعد ذلك أخرج السيد لانغدون صندوقًا جميلًا جدًّا وقام بفتحه، ثم تناول من داخله صكًّا بملكية المنزل. وبذلك انتهت المسرحية وجلسنا لتناول العشاء.

رحل الضيوف عند منتصف الليل تقريبًا وتركونا وحدنا في بيتنا الجديد. ثم دخل إيلين الطباخ ليسألنا بخصوص ما نود شراءه من حاجيات في الصباح. لم يكن أيّ منا يعرف ما إذا كان اللحم يباع في عبوات أو على شكل

قطع منفصلة. وقد اعترفنا له بهذه الحقيقة، وبدا مسرورًا لذلك. باتريك مكالير، ذلك الشاب الآيرلندي الحصيف، جاء لمعرفة ما هو مطلوب منه في اليوم التالي، وكانت المرة الأولى التي نلمحه فيها.

يبدو زواجنا وكأنه تم بسهولة ويسر وسلاسة، ولكنّ الأمر كان غير ذلك، فهو لم يكن بتلك السهولة والسلاسة. لقد تقدمت لخطبتها ثلاث مرات أو أربع، وتلقيت العدد ذاته من حالات الرفض. كنت أسافر في جميع أنحاء البلاد لإلقاء المحاضرات، ولكنني كنت أجد الفرصة من وقت لآخر للذهاب إلى إلميرا لاستئناف المحاولات. وأخيرًا جاءني العون وابتسم لي الحظ في مكان أبعد ما يكون عن حساباتي. لقد كانت واحدة من تلك الحالات التي كانت تحدث كثيرًا في القرون الماضية، ولا تحدث في زماننا إلا نادرًا؛ تلك الحالات التي تتدخل فيها العناية الإلهية.

كنت جاهزًا للانطلاق إلى نيويورك. وكانت

العربة تنتظر خارج البوابة الرئيسية لمنزل عائلة لانغدون وفيها حقيبتي، وكان سائقها بارني قد اتخذ مكانه في المقعد الأمامي. كان ذلك في الثامنة أو التاسعة مساء، وكان الجو معتمًا. ودعت أفراد العائلة الذين تجمعوا في الشرفة الأمامية، ثم خرجت أنا وتشارلي وصعدنا إلى داخل العربة، وجلسنا في المقعد الآخر الذي كان خلف مقعد السائق. كان ذلك المقعد قريبًا من مؤخرة العربة ولم يكن مثبتًا في مكانه كما ينبغي، ومن حسن حظي أننا لم نتنبه لهذه المسألة. أشعل تشارلي سيجارة، وضرب بارني الحصان ضربة خفيفة بسوطه، فوثب نحو الأمام. وبعدها صعدت أنا وتشارلي إلى ظهر العربة. ثم شاهدت كتلة النار الصغيرة الحمراء على طرف سيجارته ترسم في الظلام قوسًا، وكان يتجه نحو الأرض. ذلك القوس لا يزال أمام عيني إلى الآن. بعد ذلك وجدت أعلى رأسي يرتطم بالأرض، وبقيت على تلك الهيئة لِلَحظة، ثم سقطت على الأرض مغشيًّا

علي. وقد صادف أن جاء رأسي على تجويف أشبه بالصحن شكلته أربعة من الأحجار تلتقي حوافها حوله. وكانت هذه البقعة المنخفضة نصف مملوءة برمل ناعم جلبوه حديثًا إلى المكان لإصلاح الطريق، فشكّل ذلك ما يشبه وسادة مناسبة استند عليها رأسي بشكل جيد. لم يلمس رأسي أيًّا من تلك الحجارة، ولم يهتز جزء من جسمي حتى، ولم أصب بأي سوء على الإطلاق.

تأذى تشارلي بشكل كبير، ولكنه في غمرة خوفه عليّ وقلقه تجاهي لم يكد يشعر بشيء من هذا. جاءَ جميع من كانوا في المنزل مسرعين. لقد سرَّني كثيرًا وأسعدني سماع عبارات الأسف والأسى من حولي لما حدث لنا. كان ذلك من أجمل ما عشت في حياتي من لحظات السعادة، وهي قلية جدًّا. ولم يكن أيّ شيء ليفسدها إلا كوني قد نجوت. كنت أخشى أن يكتشفوا أمري عاجلًا أو آجلًا. صار جسدي عبارة عن كتلة بالغة الثقل، لدرجة أنّ بارني استعان بشخصين

آخرين حتى يتمكن من حملي إلى المنزل. أُنجِزَت المهمة ووجدت نفسي هناك، وأدركت أني قد حققت نصرًا؛ فقد صرت الآن في ذلك المكان!

في البيت أجلسوني على كرسي له ذراعان، وأرسلوا في طلب طبيب العائلة. مسكين ذلك العجوز! لم يكن من اللائق أن يجعلوه يخرج في وقت كهذا، ولكنه العمل. وأنا لم أكن في وضع يمكنني من الاحتجاج على خروجه، فقد كنت غائبًا عن الوعي تمامًا.

حين وصل الطبيب تعامل مع المسألة بطريقة علمية وعملية، أي أنه بدأ برؤية ما إذا كان هناك جروح أو تورمات، وأعلن أنه لم يكن يوجد شيء من ذلك. وقال إني لو ذهبت للنوم ونسيت ما حدث فإني سأكون في وضع أفضل في الصباح. ولكنّ الأمر لم يكن كما قال، إذ لم أكن أفضل حالًا في الصباح، ولم تكن لدي النية في أن أكون في حال أفضل، وكنت بعيدًا من المرحلة التي أكون فيها كذلك. أخبرتهم بأني أحتاج إلى الراحة فقط، وأني لم أعد أحتاج ذلك

الطبيب مطلقًا.

لقد حظيت بإقامة ممتعة في ذلك البيت لثلاثة أيام نتيجة لتلك المغامرة. وقد أفادتني هذه الإقامة كثيرًا ودفعت بقضيتي خطوات إلى الأمام، فجاءت زيارتي التالية لتحسم المسألة، حيث أصبحنا بعدها أنا وأوليفيا مخطوبين. ولكنّ الخطبة كانت مشروطة، وكان الشرط هو موافقة الأهل.

في حديث خاص لفت السيد لانغدون انتباهي إلى مسألة كنت أدركها قبل ذلك، وهي أني شخص غريب بالنسبة لهم، وأنهم يجهلون عني أكثر الأمور. فأنا أنتمي إلى الطرف الآخر من القارة، والناس في ذلك المكان هم فقط من يعرفونني ويستطيعون أن يحكموا على شخصيتي، في حال كان لي شخصية. أعطيته أسماء بعض الأشخاص، وقال إنه يمكنني أن أذهب وأنتظر ريثما يكتب إليهم ويتلقى منهم الردود.

وصلت الردود في الوقت المناسب، ودعاني

السيد لانغدون وعقدنا جلسة خاصة بمفردنا مرة أخرى. كنت قد أعطيته أسماء ستة رجال معروفين، بينهم اثنان من الكهنة، وجميعهم كانوا من سان فرانسيسكو. وقد كتب هو نفسه لرجل يعمل في أحد المصارف، وكان يعمل قبل ذلك بسنوات مديرًا لإحدى مدارس الأحد في إلميرا، وهو معروف بشكل كبير لدى السيد لانغدون. النتائج لم تكن مشجعة. جميع أولئك الرجال كانوا صريحين أكثر مما ينبغي بكثير. فهم لم يكتفوا فقط بمحاولة دفعه لأن يرفضني، بل كانوا أيضًا متحمسين لهذا الرفض بطريقة لا مبرر لها. واحد من الكاهنين ومعه ذلك الشخص الذي كان يعمل مديرًا لمدرسة الأحد أضافا إلى أكاذيبهما القذرة جملة يعبران فيها عن اعتقادهما بأني سأموت سكيرًا.

انتهينا من قراءة الرسائل، وأعقب ذلك صمت طويل غلب عليه الحزن والسكينة. لم أكن قادرًا على التفكير في أي شيء، ولم يكن لدي ما أقوله. وظهر لي أنّ السيد لانغدون

كان في الوضع نفسه أيضًا. وأخيرًا رفع وجهه الجميل نحوي، واستقرت عيناه عليّ بكل ما فيهما من صدق وحدّة، ثم قال: أيّ نوع من البشر أولئك؟ ألا يوجد لك صديق في هذه الدنيا؟

قلت: يبدو أنه لا يوجد.

ثم قال: سأكون أنا نفسي صديقًا لك. إنني أوافق على زواجك من ابنتي، فأنا أعرفك أفضل مما يعرفونك.

وبهذه النهاية السعيدة حسم الأمر.

تمّت الخطوبة في الرابع من فبراير عام 1869. كان خاتم الخطوبة أملس، وكان من الذهب الثقيل، وقد نقش هذا التاريخ عليه من الداخل. وبعد عام أخذته من إصبعها وجهزته ليكون خاتم الزواج، وذلك بإضافة تاريخ زواجنا ونقشه داخله. هذا التاريخ هو الثاني من فبراير 1870. ولم يفارق الخاتم إصبعها بعد ذلك ولو لحظة واحدة.

في إيطاليا، حيث أعاد الموت لوجهها الجميل

ذلك الصِّبا الراحل، وحيث كانت تنام مشرقة عذبة كما كانت في صباها وفي يوم زفافها، أرادوا أن ينزعوه من إصبعها ويحتفظوا به للأطفال، ولكني منعتهم من ذلك. وهو الآن معها حيث ترقد.

الفصل الرابع والعشرون:

رزقنا بطفلنا الأول في السابع من نوفمبر من عام 1870، وأسميناه لانغدون. عاش لانغدون اثنين وعشرين شهرًا، وقد تسببت أنا بمرضه بعد أن تركته والدته في عهدتي ذات مرة. فقد خرجت به في جولة طويلة في إحدى العربات المكشوفة لغرض التنزه. كان ذلك في صباح شديد البرودة والرطوبة، ولكنّ الطفل كان مغطى بالفرو بشكل جيد، إضافة إلى أنه كان في يدي رجل شديد الحرص والانتباه، فلم يكن ليطاله أيّ أذى. ولكني وجدت نفسي أغرق بسرعة في حلم من أحلام اليقظة وأنسى كل شيء بخصوص المهمة الموكلة إليّ، فقد سقط

الغطاء عن رجلي الطفل وصارتا مكشوفتين. تنبه السائق للأمر فأعدت الغطاء إليهما مباشرة، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان، فقد تيبست أوصاله من البرد. أسرعت به إلى البيت، وكنت مذعورًا من هول ما اقترفت، خائفًا من عواقبه. إنني أحس بالخزي والعار على الدوام مما صدر عني من إهمال ولا مبالاة في ذلك الصباح، وأحاول بقدر ما أستطيع ألا أسمح لنفسي بالتفكير فيه. لا أظن أنه كانت لدي الشجاعة في ذلك الوقت لأعترف بما فعلت، وأعتقد أني على الأرجح لم أعترف حتى هذه اللحظة.

ولدت سوزي في التاسع عشر من مارس عام 1872. عندما كانت طفلة صغيرة كنا نقضي مواسم الصيف في مزرعة كواري التي تقع بين التلال إلى الشرق من إلميرا في ولاية نيويورك. أما باقي أوقات السنة فكنا نمضيها في بيتنا في هارتفورد التي انتقلنا إليها عام 1871. كانت سوزي كباقي الأطفال مرحة سعيدة، مولعة باللعب. ولكنها تختلف عن الأطفال العاديين

في أنها كانت تحب في بعض الأحيان الاختلاء بنفسها كثيرًا وتحاول استنطاق المعاني التي تكمن في الأشياء الغامضة والتي تشكّل لغز الوجود الإنساني.

عندما كانت في السابعة كنت أسمع والدتها لأكثر من مرة تخاطبها وتقول لها:

اسمعي يا سوزي، عليك ألا تبكي بسبب الأشياء البسيطة.

كان هذا يحفز التفكير عند سوزي ويغذيه. لقد كان قلبها يتفطر حزنًا على أشياء بسيطة تحدث ويبدو الواحد منها مأساة كبيرة في نظرها، مثل لعبة تكسر، أو نزهة تلغى بسبب حدوث رعد أو برق أو مطر، أو فأر يكبر ويترعرع في حجرتها ويصبح أليفًا ودودًا ثم يلتقطه قط ويأكله. (كيف نميز يا ترى عظيم الأشياء من صغيرها؟) كانت تتناول كل مشكلة وكل مسألة بشكل جدّي، وتفكر فيها مليًّا قبل أن تستسلم أخيرًا، وتلجأ إلى والدتها طلبًا للمساعدة:

- ماما، ما هي «الأشياء البسيطة»؟

لقد بدا لوالدتها سؤالًا سهلًا في بداية الأمر، غير أنّ صعوبات ومشاكل لم تكن في الحسبان ولم تكن تتوقعها أخذت تبرز قبل أن تتمكن من إيجاد الكلمات التي تصوغ بها إجابتها. ثم أخذت تلك الصعوبات تتزايد وتتضاعف، وتجمدت كل محاولات البحث عن الجواب.

وحاولت سوزي بعد ذلك أن تجد لوالدتها مخرجًا من خلال تقديم نماذج وأمثلة وصور.

كانت أمها تجهز نفسها للذهاب إلى مركز المدينة، وكان من جملة الأهداف التي أرادت أن تذهب إلى هناك من أجلها شراء لعبة لسوزي على شكل ساعة كانت قد وعدت بها طويلًا.

- إذا نسيتِ أن تشتري لي الساعة، هل سيكون هذا أمرًا بسيطًا يا أمي؟

لم تكن سوزي قلقة بشأن الساعة، لأنها كانت تعلم بأنّ والدتها لن تنساها. ما كانت تأمل به هو جواب يريح عقلها المتعب الصغير ويهدئه.

وبالطبع فقد خاب أملها، فمقدار سوء الحظ في نظر شخص من الأشخاص لا يتحدد حسب مقاييس شخص آخر لا علاقة له بالأمر، بل فقط بمقاييس الشخص الأول، الذي يقع هو نفسه تحديدًا تحت تأثير ذلك الحظ. ففقدان ملك لملكه مثلًا هو خطب عظيم بنظره، ولكنه لا يعني شيئًا بالنسبة لطفل، وضياع دمية يعتبر أمرًا عظيمًا في نظر الطفل، أما في نظر الملك فهو شيء لا يستحق الحزن.

كانت سوزي في طفولتها عاطفية بطبعها، وقد كلفها ذلك الكثير من الدموع، قبل أن تتعلم كيف تتحكم بعاطفتها، ولكنّ تلك العاطفة أصبحت فيما بعد أشبه بنكهة تميز شخصيتها التي صارت مع تلك النكهة أقوى وأفضل. فقد جعلت منها إنسانة طيبة مع احتفاظها بكرامتها، وحفظت لها طيبتها من أن تشوبها شوائب الغرور والرياء. ليس هذا فحسب، بل منعت كذلك مجرد ظهور تلك الشوائب. حين تعود بي الذاكرة إلى ذلك الماضي الراحل البعيد،

فإنه يبدو لي أمرًا طبيعيًّا أن أسهب في الحديث عن أحداث ووقائع جرت في طفولة سوزي، أتحدث عنها بكل عاطفة وحنين ولا أُلام في ذلك، وقائع وأحداث جعلت من وجودها شيئًا جميلًا في حياتنا. وأجد من الطبيعي كذلك أن أتحاشى ذكر بعض الأشياء البسيطة التي كانت تزعجنا منها.

في صيف عام 1880 كنا نقيم في مزرعة كواري على قمة تلة مرتفعة تبعد ثلاثة كيلومترات عن إلميرا، وكانت سوزي وقتها ما تزال في الثامنة من العمر. كان وقت الحصاد يقترب، وكانت سوزي وكلارا تعدّان الساعات. فقد كان لذلك الوقت أهمية كبيرة لديهما، إذ إنهما تلقتا من قبل وعدًا بأنهما ستصعدان إلى العربة عند خروجها من الحقول وتجلسان على قمة كومة القش فيها حتى البيت. فهما لم تحظيا قبل ذلك بهذه المكرمة التي كانت لا تقدّر بثمن بالنسبة لطفلتين في سنهما وطبيعتهما. ولم يكن يجري على لسان أي منهما في ذلك الوقت سوى هذه المغامرة التي

كانت ستصنع التاريخ بنظرهما. ولكنّ النحس وسوء الطالع حلاّ بسوزي في صبيحة ذلك اليوم المهم، فقد ضربت كلارا بعصا في لحظة فقدت فيها أعصابها على نحو غير متوقع. هذه الإساءة التي اقترفت كانت من الخطورة بحيث أنها تجاوزت وبكل وضوح حدود المسموح به في البيت. وبناء على القوانين والعادات المتبعة فيه، فقد ذهبت سوزي إلى والدتها لتعترف بما صنعت وتساعد في تحديد حجم ونوع العقوبة المترتبة. وكان معروفًا تمامًا بأنّ جميع العقوبات إنما كان لها هدف واحد لا غير، ألا وهو تذكير المذنب وتحذيره من أن يقع ثانية في الذنب الذي وقع فيه. بحثت سوزي مع والدتها عقوبات مختلفة، ولكن لم يظهر أنّ أيًّا منها كان كافيًا. لقد كان ذنبًا شديد الخطورة، ولذا فقد كان الأمر يتطلب نصب إشارة خطر في الذاكرة لا تختفي ولا تزول، بل تبقى فيها وتواصل عملها بلا حدود في تحذير صاحبها وإنقاذه من الوقوع في الذنوب. وكان من بين العقوبات المطروحة

حرمانها من ركوب العربة. وقد كان واضحًا أنّ هذا قد شكل صدمة قوية لسوزي. وأخيرًا قامت والدتها بتلخيص نتيجة النقاش وذكر العقوبات المقترحة، وسألت سوزي:

- أي عقوبة من هذه العقوبات ينبغي أن نطبق برأيك؟

فكرت سوزي وتجنبت الإجابة، ثم سألت والدتها:

- ماذا ترين أنت يا أمي؟

- حسنًا سوزي، أفضّل أن أترك الأمر لك فتختاري أنت بنفسك.

كان الأمر شاقًّا بالنسبة لسوزي، وقد كلفها الكثير من التفكير العميق، وجعلت تقلب الأمور وتزنها، ولكنها وصلت في النهاية إلى ما كان يمكن لأي شخص يعرفها أن يتوقع وصولها إليه. قالت:

حسنًا يا أمي، أختار عقوبة الحرمان من ركوب العربة؛ لأنّ العقوبات الأخرى كما تعلمين قد لا تجعلني أتذكر أنه عليَّ ألا أرتكب

الخطأ نفسه ثانية، ولكني إذا حرمت ركوبها فإني سأتذكر ذلك بسهولة.

العقوبة الحقيقية القاسية والدائمة يمكن أن تقع في هذه الدنيا على الشخص الخطأ بالقدر نفسه الذي تقع فيه على الشخص الذي يستحقها. لم يكن أنا من ضرب كلارا، ولكني حين أتذكر كيف حرمت المسكينة سوزي من ركوب تلك العربة فإنّ ذلك يجعلني أحس بعد ستة وعشرين عامًا من تلك الحادثة كما لو كنت عوقبت مثلها تمامًا.

الفصل الخامس والعشرون:

عندما كانت سوزي في الثالثة عشرة من عمرها كانت صغيرة الحجم نحيلة الجسد، يتدلى شعرها على ظهرها بنيًّا. ولعلها كانت أكثر أفراد الأسرة انشغالًا في ذلك الوقت نظرًا لكثرة الدروس والتمارين الصحية عندها، وأشياء أخرى جميلة وممتعة كانت ترى أنه عليها القيام بها. وانطلاقًا من حبها لي فقد أضافت إلى تلك

الأعباء عبئًا جديدًا من تلقاء نفسها ودون أن يعلم به أحد منا، وهو كتابة سيرة لحياتي. كانت تقوم بذلك العمل ليلًا في حجرتها، وتحفظ ما تدونه بعيدًا عن الأنظار. وبعد مدة بسيطة اكتشفت والدتها ذلك الشيء، فأخذت الأوراق وجاءت بها إليّ كي أراها، ثم أخبرت سوزي بذلك، وأخبرتها أيضًا بسعادتي وافتخاري بما قرأت. أتذكر ذلك الوقت بسعادة غامرة. لقد تلقيت الكثير من المديح والثناء في حياتي قبل ذلك، ولكن لم يؤثر فيّ شيء منه كما فعل مديح وثناء سوزي الذي لا يدانيه في نظري أيّ مديح آخر أو ثناء، والذي ظل إلى الآن على هذه المكانة في نفسي. الآن، وبعد كل هذه السنين الطوال، فإني لا أزال أحس حين أقرأ تلك الكلمات أنها رسالة جاءتني من ملك من ملوك الأرض، ولا أزال أحس بالإحساس العذب الجميل ذاته الذي أحدثته لدي تلك المفاجأة في ذلك الوقت الذي تلقيتها فيه، ولكن يصاحبها شعور بالحزن هو وليد يقيني ومعرفتي بأنّ تلك

اليد التي صاغتها بلهفة وعجلة لن تلمس يدي مرة أخرى أبدًا. وأشعر بكل تأكيد بما سيشعر به شخص وضيع وبلا أحلام إذا وقع بصره على كتاب يرفعه فجأة مما هو عليه من الوضاعة إلى مستوى النبلاء.

لا أسمح لنفسي أن أغيّر أيّ سطر أو كلمة في الصورة التي رسمتها لي سوزي. سأعرض بعض الفقرات بكل ما تحمله من بساطة، تمامًا كما وردت، وكما نبعت من قلبها الصادق، ذلك القلب الطفولي الجميل. فكل ما ينبع من ذلك المصدر يبقى له سحره وجماله المميز الذي يمكنه لو شاء أن يكسر جميع القواعد الأدبية المعروفة، ويبقى مع ذلك أدبًا.

الأخطاء الإملائية كانت واضحة ومتكررة، ولكنها أخطاء سوزي وسوف تبقى كما هي. إني أعشق تلك الأخطاء، فهي في نظري كالذهب، وتصحيحها سيكون تلويثًا لها وإفسادًا، لا تحسينًا، وسيسلبها حريتها وبساطتها ويجعل منها كلمات جامدة بلا روح. وسوزي هي

من كتب تلك الكلمات، وقد قدمت أفضل ما لديها، ولا يوجد في نظري كلمات تفوق ما كتبت سوزي!

كانت تتعلم اللغات بسهولة، وكانت تتعلم التاريخ بسهولة، وكانت أيضًا تتعلم الموسيقى بسهولة. كانت تتعلم جميع الأشياء بسهولة وسرعة، وعلى أكمل وجه، باستثناء الهجاء الصحيح للكلمات. وحتى هذا فقد تعلمته بعد مدة، ولكني ما كنت لأهتم كثيرًا لو أنها فشلت فيه، فبرغم أنّ التهجئة السليمة كانت أكثر ما أجيده إلا أني لم أكن أوليها تلك الأهمية أبدًا، ولا أزال إلى الآن أحمل تجاهها هذا الإحساس. فقد كانت شخصيات الرجال تظهر لا شعوريًّا من خلال استخدامهم أساليبهم الخاصة في الكتابة، وكانوا يبدون تألقًا وقدرات عالية في التعبير، كل ذلك كان قبل أن تأتي كتب الهجاء بما تضمه من قواعد وشكليات مختلفة. وعليه فإنّ قيمة هذه الكتب برأيي قد تكون موضع شك حقيقي.

بدأت سوزي بكتابة السيرة في عام 1885 عندما كنت أنا في الخمسين من عمري، وكانت هي وقتها في الرابعة عشرة. وتبدأها كما يلي:

«نحن عائلة سعيدة جدًّا. تتكون عائلتنا منا أنا وبابا وماما وجين وكلارا. إنّ بابا هو من أكتب عنه، ولن أجد عناء في معرفة ما سأقول عنه، لأنه شخصية مدهشة جدًّا.

لقد وصفوا أبي مرات كثيرة، ولكنها كانت أوصافًا خاطئة جدًّا. لديه شعر أشيب جميل، ليس شديد الكثافة ولا شديد الطول، فهو في الشكل المناسب. أنفه ذو شكل روماني، وهو يزيد من جمال تقاسيم وجهه بشكل كبير. عيونه زرقاء جميلة، وشاربه قصير. له رأس رائع الشكل، ومظهره جميل جدًّا. باختصار هو رجل حسن الشكل إلى درجة كبيرة. بشرته شقراء وليس له ذقن. إنه رجل فاضل جدًّا ومسلٍّ جدًّا. وهو رجل حاد، ولكننا جميعًا كذلك في هذه العائلة. إنه أحسن رجل رأيته في حياتي، وأفضل رجل يمكن أن أراه- آه،

إنه شارد الذهن دائمًا. وهو يروي لنا قصصًا في منتهى الجمال...

بابا لديه طريقة خاصة في المشي، وتبدو مناسبة له تمامًا، ولكنّ غالبية الناس ليست كذلك. وهو دائمًا يمشي إلى الأمام وإلى الخلف في الغرفة أثناء التفكير وبين أوقات الطعام...

يستخدم بابا لغة قوية جدًّا، ولكن ليس لدي معلومات أكيدة بخصوص الوقت الذي تزوج فيه ماما. هناك سيدة من معارفه تحب أن تقاطع الآخرين عندما يتكلمون. وقد قال بابا لماما إنه يعتقد أنّ عليه أن يقول لزوج تلك السيدة: إنني مسرور لأنّ زوجتك لم تكن موجودة حين أمرُ الله بأن يكون النور».

وكما ذكرت من قبل، فإنّ هذه مؤرخة صادقة لا تخفي أخطاء الآخرين، ولكنها تظهرها بالقدر نفسه الذي تظهر فيه ما عندهم من الصفات الطيبة. لقد قلت بالطبع تلك العبارة التي اقتبستها عني، وما زلتُ حتى اليوم

وبعد هذه المدة الطويلة شبه مقتنع، كما كنت في ذلك الوقت، بأنه لو كانت تلك السيدة التي أشارت إليها سوزي حاضرة حين أمر الخالق النور أن «يكون» لقاطعته ولما كنا قد رأينا النور بسببها أبدًا.

الفصل السادس والعشرون:

هناك مشكلة كبيرة تواجهك حين تكتب سيرة ذاتية تتمثل في كثرة وتنوع الأفكار التي تطرح نفسها حين تجلس وتصبح جاهزًا للكتابة. ففي بعض الأحيان ينهال عليك فيض من الأفكار من عشرين اتجاهًا مختلفًا، وتجد نفسك في لحظة ما تكاد تغرق في ذلك الفيض. ومن هذه الأفكار العشرين يمكنك أن تكتب عن فكرة واحدة فقط في المرة الواحدة، ولكنك لا تعرف أي واحدة تختار، مع ذلك فإنّ عليك أن تختار، إذ لا مناص من ذلك. وتقوم بعدها بعملية الاختيار، وأنت تعي بأنّ الأفكار التسع عشرة الأخرى المؤجلة ربما

تكون قد أجلت لفائدة ما، ثم تضيع بعدها منك، فهذه الأفكار ربما لا تطرح نفسها أبدًا بعد تلك المرة. ولكنّ الكلمات في هذه المرة مفروضة عليّ فرضًا، والسبب في هذا يعود بشكل رئيس إلى أنّ الفكرة الأخيرة قد طرحت نفسها خلال الدقائق الخمس عشرة الأخيرة، وعليه فإنها الفكرة الأكثر سخونة، إذ لم يتح لها بعد أن تبرد. تتبلور هذه الفكرة بوجود عملين أدبيين يعرضهما كاتبان هاويان. وأنا أعرف من تجاربي السابقة أنّ أعمال الهواة تعرض عليك في ظاهر الأمر حتى تعطيها حكمًا صادقًا بعيدًا عن العواطف وتتبعه برأي واضح وصريح. غير أنها في الواقع لا تأتي بتلك الروح أبدًا. فما يطلبه ويتوقعه أصحابها منك إنما هو الثناء والمديح، ليس أكثر. وقد علمتني التجارب أيضًا أن الثناء في مثل هذه الحالات يستحيل على الأغلب إذا أريد للحكم أن يكون مبنيًّا على الأمانة.

انتهيت في هذه اللحظة من قراءة العملين اللذين تلقيتهما صباح هذا اليوم، وأنا أشعر

بشيء من الاضطراب. فلو أنهما جاءا من شخصين غريبين لما تحملت عناء قراءتهما، ولكنت أعدتهما إلى كاتبيهما كما اعتدت أن أفعل، متذرعًا بقلة ما لدي من الخبرة في مجال التحرير، وبكوني والحال كذلك غير مؤهل للحكم على أيّ عمل أدبي باستثناء ما أقوم بكتابته أنا. ولكنّ حصاد هذا الصباح كان مصدرَه اثنان من الأصدقاء، وهذا ما غيّر الأمور. هناك مادة أدبية في كل من العملين ولكنها غير ناضجة. المادة الخام موجودة فيهما بالتأكيد، ولو وقعت في أيدٍ ذات خبرة ومراس لكانت النتيجة مرضية جدًّا. فاللحم الجيد يحتاج طباخًا متميزًا لكي يعد منه مائدة شهية. أحد هذين العملين في الحقيقة يقترب جدًّا من أن يصبح أدبًا، ولكنّ اليد الهاوية جعلت منه ضحية لتكرار أفسده. وإذا كان علي أن أعطي رأيًا مرضيًا فإني أقترح على الكاتب في هذه الحالة أن يعرض العمل على إحدى المجلات.

هناك شيء ما في هذه الشجاعة الطفولية

يثير الإعجاب. فهي شجاعة تنطوي على تهور، وهي لا تظهر على ما أعتقد إلا في ساحة وحيدة هي ساحة الأدب. في الحرب نرى شيئًا يشبهها، ولكنه شبه عن بعد. فلطالما ضحى الجنود العاديون غير المتمرسين بأنفسهم في قضايا خاسرة، ووقفوا بكل سرور مستعدين لمواجهة كل ما فيها من مخاطر، وينتهي بهم الأمر هنا، إذ لا يمكن لأكثر أولئك الجنود ثقة واعتدادًا بالنفس أن يأتي ويقدم نفسه كمرشح لمنصب القائد. لكنّ الكاتب المبتدئ يفعل ذلك. فهو يقدم بقلم غير مجرّب أعمالًا تعوزها الصنعة والمهارة، ويعرضها على جميع المجلات، الواحدة تلو الأخرى. فهو بالأحرى يريد لهذه الأعمال أن تكون حيث تكون أعمال كبار الأدباء والكتّاب ممن وصلوا إلى ما وصلوا إليه في الأدب بعد سنين وسنين من المران والتدرب المضني والجاد عندما كانوا في مراحل مبكرة من هذه الصناعة.

إنني على ثقة بأنّ شيئًا كهذا لا يحدث إلا في

صناعتنا. فالشخص الذي لم يتدرب على صنع الأحذية لا يذهب إلى مدير مصنع الأحذية ليعرض عليه خدماته كصانع للأحذية، ولن يكون حتى أبسط الكتّاب المبتدئين من الغباء بحيث يقوم بفعل شيءٍ كهذا، لأنه يعلم بأنّ الأمر سيكون مضحكًا. وسيعرف أنّ أكثر ما يعلمه جميع الناس هو أنّ التدرب ضروري للإنسان حتى يكون مؤهلًا للعمل في مهنة سمكري مثلًا أو بنّاء أو طبّاع أو طبيب خيول أو جزار، وكذلك كل عمل يحصل من خلاله الإنسان على الرزق والشهرة. ولكن حين يتعلق الأمر بصناعة الأدب فإنه يفقد عقله فجأة ويعتقد لحظتها أنه أمام مهنة لا تحتاج منه أي استعداد أو خبرة أو تدريب، وأنها لا تتطلب سوى إحساس بالموهبة وشجاعة فائقة.

لن ندرك مدى حجم غرابة هذا الأمر إلا إذا بحثنا حولنا عن مثال ملموس يجسده لنا. فيمكننا أن نتخيل مثلًا حالة مشابهة لشخص ما يطمح بالتميز والغنى في عالم الأوبرا، فيتقدم

للإدارة للعمل لديهم كمطرب ثانٍ من المطربين ذوي الأصوات الصادحة. فيتم قبوله، ويجري ترتيب شروط العمل وإدراج اسمه في جدول الرواتب. أرجو أن تفهموا أنّ هذه الحالة متخيلة فقط ولا أزعم أنها قد حصلت بالفعل.

لنتابع!

بعد أول أداء يؤديه هذا المطرب يستدعيه المدير لكي يعطيه أجره ولكي يعرف منه بعض الأشياء، فيسأله:

- هل درست الموسيقى في حياتك؟

- قليلًا- نعم، وحدي، في أوقات غير منتظمة، لغرض التسلية.

- إذن فأنت لم تتدرب أبدًا تدريبًا منظمًا على أيدي خبراء الأوبرا ولم تبذل أيّ جهد في ذلك!

- كلا.

- ما الذي جعلك تعتقد إذن أنه يمكنك أن تكون مغنيًا ثانيًا في فرقة مثل فرقة لوهينغرين؟

- ظننت أنه يمكنني ذلك. أردت أن أجرب الأمر. لقد بدا لي أنني أمتلك صوتًا.

- نعم تمتلك صوتًا، وربما تنجح بعد خمس سنوات من التدريب المضني والجاد على يد أحد الخبراء من أصحاب المهارة، ولكنني أؤكد لك أنك لست جاهزًا لهذا العمل الآن. لديك صوت، ولديك حضور، وعندك ثقة متميزة وواضحة، وشجاعة كبيرة. هذه جميعها أمور أساسية تصب في مصلحتك، ولكن هناك أساسيات أخرى في هذه المهنة العظيمة لا تزال تنقصك. فإذا لم تستطع أن توفر الوقت والجهد الضروريين لاكتسابها فعليك أن تترك الأوبرا جانبًا وتحاول شيئًا آخر غيرها لا يتطلب تدريبًا أو خبرة. اذهب الآن وحاول الحصول على عمل في الجراحة.

الفصل السابع والعشرون:

قبل أن نأتي إلى فيلا دي كوارتو هنا أقمنا في إحدى الفيلات في فلورنسا. (ملحوظة من المحرر: كتبت في عام 1904). كان هذا قبل اثني عشر عامًا. تلك الفيلا في فلورنسا كان اسمها فيفياني، وكانت تحتل موقعًا جميلًا على إحدى التلال، وتشرف على فلورنسا وعلى الوادي الكبير. السنة التي قضيناها في فيلا فيفياني كانت على عكس الشهور الخمسة في دي كوارتو. وقد وجدت بين دفاتري القديمة بعض الأوراق التي كتبتها في وصف تلك السنة التي تجلب ذكراها السرور والبهجة إلى نفسي. وسأعرض هنا شيئًا منها.

في ربيع عام 1892 كنا في طريقنا إلى ألمانيا، وهي المكان الذي يقصده المرضى من كل مكان. وقد مررنا أثناء ذلك بفلورنسا وبدأنا باتخاذ الترتيبات لاستئجار فيلا هناك. وقام أصدقاء لنا باستكمال تلك الترتيبات بعد ذهابنا إلى ألمانيا. وعندما عدنا بعد ثلاثة أو أربعة

أشهر كان كل شيء جاهزًا، بما في ذلك الخدم والطعام. ولا يحتاج ذكر هذا الأمر أكثر من جملة واحدة، ولكنه يتعب شخصًا كسولًا مثلي حين يجعله يفكر بما كان ينطوي عليه من تخطيط وعمل ومشقة. ومن الأسهل عندي والأفضل أن أقوم بدفن عائلتين معًا من أن أقوم باختيار منزل لعائلتي وتجهيزه.

كانت الفيلا في وضع مثالي، فقد أقيمت على جانب تلة تبعد ثلاثة كيلومترات عن فلورنسا. وكانت تطل على أشجار الزيتون وكروم العنب، وإلى اليمين تقع فييسوول خلف بعض التلال، وعلى مقربة منها أيضًا قلعة روس بضخامتها وروعتها وجدرانها وأبراجها التي عبثت بها أنامل الطقس على امتداد قرون من النسيان. وبين السهول الممتدة تشاهد فلورنسا بألوانها الوردية والرمادية والبنية، ترتفع في وسطها قبة كاتدرائيتها العالية وتتربع على عرش المكان، وعلى يمينها قبة أصغر منها هي قبة بالازو فيشيو. وتحيط بها التلال العالية من كل

جانب، تلال تتناثر فيها أعداد لا حصر لها من الفيلات كما تتناثر على الأرض حبات الثلج. وأنا لا أزال أعتقد بعد تسعة أشهر من الألفة مع هذا المشهد، وكما كنت منذ البداية، أنه ليس هناك على وجه البسيطة صورة أجمل من هذه الصورة، إنها أروع ما يمكن أن يشاهده إنسان، وأكثر ما يسرّ العين ويبهج الروح.

وصلنا إلى فلورنسا في السادس والعشرين من سبتمبر عام 1892. قمت بحلق شعر رأسي، وكان ذلك خطأً كبيرًا. بعد الظهر انتقلنا إلى الفيلا، وفي المساء قام أحد الريفيين بإحضار بعض الثياب – لست متأكدًا من اللقب الذي يطلقونه عليه. هو رجل يعيش في المزرعة ويستخدمه المالك لكي يهتم بها. وهذا المزارع في أواسط العمر، وهو مثل باقي المزارعين، وسيم حنطي اللون، طلق المحيّا ومهذب، مستقل بشخصيته بشكل تام، وهو أيضًا رجل متواضع. أخبرني أحدهم بأنه قد أخذ مني أجرًا كبيرًا مقابل الملابس، ولكنّ هذا الشخص

الذي نقل لي الخبر أوضح لي في الوقت ذاته أنّ هذا من الأمور المعتادة هناك.

في صباح السابع والعشرين من سبتمبر قام الرجل بإحضار بقية الملابس. ومرة أخرى أخذ أجرًا كبيرًا مقابل ذلك، ولكنهم أيضًا أخبروني بأنّ هذا من الأمور المعتادة. جيد إذن! فأنا لا أود أن أضر بالعادات والأعراف. بعد ذلك استأجرت عربة وحصانين وسائقًا. العربة في حالة سيئة، وهي تزن ثلاثين طنًّا. والخيل ضعيفة، وتبدي احتجاجها على وجود تلك العربة، فتتوقف من وقت لآخر وتلتفت جانبًا لتتفحصها بنوع من التخوف والارتياب. يتسبب هذا في تأخيرنا، ولكنه مصدر تسلية للناس على طول الطريق. فهم يخرجون ويقفون حولنا، وأيديهم في جيوبهم، يناقشون المسألة فيما بينهم. وقد عرفت أنهم يقولون إنّ عربة بهذا الوزن لا تناسبها خيول كهذه، فهذه الخيل تحتاج إلى عربة صغيرة بعجلتين.

تتكون الفيلا من طابقين، أقصد أنها ليست

بيتًا قديمًا بالمفهوم الإيطالي المعروف. لا شك في أنّ هذه البقعة قد شكلت مكانًا رائعًا للاستقرار وإقامة المنازل فيها منذ ألف عام قبل الميلاد، ولكن يقال إنّ هذا البيت أقيم قبل مئتي عام فقط. من الخارج هو مبنى عادي مربع الشكل يشبه الصندوق، مطلي باللون الأصفر الفاتح. الحديقة حوله تمتلئ بالورد وشجيرات الليمون المزروعة في حاويات كبيرة من الحجر. وهناك الكثير من أشجار الصنوبر الطويلة ذات المنظر المهيب، وأنواع أخرى من الشجر لم أعرفها من قبل، والجدران الاستنادية مغطاة بالأزهار والورد.

يشبه هذا المنزل القلعة في قوته. فجدرانه الرئيسة بنيت من الطوب بسمك ثلاث أقدام، وقد بنيت جدران الغرف من الطوب أيضًا وبالسمك نفسه تقريبًا. ترتفع الغرف في الطابق الأرضي لأكثر من عشرين قدمًا، أما الغرف العلوية فإنّ أسقفها ترتفع أكثر مما ينبغي. حاولت مرارًا أن أحصي الغرف في هذا

البيت، غير أنّ غياب التناسق والانتظام فيه كان يربكني، ولكن يظهر لي أنه كان يضم ثمانيَ وعشرين غرفة.

أكثر ما يثير الفضول من أجزاء المنزل هو الصالون، فهو يحتل حيزًا كبيرًا وفارغًا في الجزء الأوسط من هذا المنزل، وجميع أجزاء البيت الأخرى بنيت حوله. وهو يمتد إلى الأعلى خلال الطابقين، وفي اللحظة التي تدخله فيها وتجول ببصرك في أنحائه يتملكك الإحساس بعظم اتساعه. توجد فيه خمس أرائك، وهي موضوعة على امتداد جدرانه، ولكنها لا تلفت الأنظار برغم أنّ طولها مجتمعة يبلغ سبعاً وخمسين قدمًا. وفي المكان يوجد بيانو، ولكنك لا تحس بوجوده أيضًا. حاولنا أن نخفف من حجم الإحساس بذلك الاتساع والفراغ الذي جعل المكان يبدو بعرض الصحراء، وذلك باستخدام طاولات وأشياء أخرى، ولكنها بدت عاجزة عن تحقيق الغرض، ولم تجد أي نفع، فكل ما يقف أو يتحرك تحت ذلك السقف

العالي يصغر ويتضاءل.

ولكنني نسيت أن أذكر ما هو الشيء الذي يجعل هذا المكان مثيرًا للفضول والاستغراب لهذه الدرجة الكبيرة، وهو أنه ليس واسعًا بالفعل، وإنما فقط يبدو لك كذلك. إنه ذو مظهر خادع. فعندما تقيسه بالنظر تكون مساحته ستين قدمًا مربعة ويكون ارتفاعه ستين قدمًا، ولكنني عندما استخدمت شريط القياس وجدت المساحة تساوي أربعين قدمًا مربعة، ووجدت الارتفاع أربعين قدمًا. وهذه هي الأرقام الصحيحة والدقيقة. والأمر الذي يدعو إلى الغرابة والاهتمام هو أنّ المكان ظل يبدو لي حتى بعد أن قمت بقياس مساحته بالاتساع نفسه الذي كان عليه قبل عملية القياس تلك.

تلك الفيلا ذات مساحة رحبة فسيحة. وعندما تتدفق أشعة الشمس وتبرز ألوان الأرضية والجدران والسقوف الزاهية فيها يتملكك إحساس عذب بوجود شيء ما في

ذلك المكان يحتضنك ويبتسم لوجودك. لكنني لم أشاهد في حياتي بيتًا أوروبيًّا يطابق مقاييس البيت الأمريكي في جميع تفاصيله. فهناك سمة خاصة في المنزل الأمريكي أشبه ما تكون بتعابير متجذرة في لغة أجنبية تستعصي على أية ترجمة، سمة لا يفهمها الغرباء ولا يستطيعون لها وصفًا. وهذا الشيء الذي يستعصي على الوصف بصرف النظر عن ماهيته هو بالضبط ما يضفي على البيت الأمريكي هيئة البيت، ويخلق لديك إحساسًا صادقًا تجاهه، ويجعل منه أكثر ما صنعت يد الإنسان- خصوصًا المرأة- بهجة وسرورًا. فالبيت الأمريكي غني بالألوان المتنوعة التي تسر العين وتريح النظر، ويمتاز بنعومة الملمس في كل أجزائه، وبالأشكال المتناسقة الجميلة، وأشياء لا حصر لها تشد الانتباه والاهتمام وتحجب الفراغ. ولليل في أمريكا سحر يفوق سحر النهار، فالمصابيح تعطي الضياء بشكل كامل دونما انقطاع، وتحت ضوئها الناعس المتشح بمختلف الألوان تشعر

بكامل الارتياح، ويبرز سحر المكان بأجمل وأبهى صوره. أما في البيت الأوروبي فإنك لا تجد ما تواجه به الظلام من غاز أو كهرباء حين يطبق عليك، لا تجد سوى مصابيح مزعجة لا يضاهيها أي شيء في قلة الفاعلية.

التاسع والعشرون من سبتمبر: يبدو أنّ لدي المقدرة على نسيان كل شيء ما عدا أني قد قمت بحلق رأسي. المشكلة الأساسية في هذا الأمر تكمن في وجود الذباب، فهو يحب رأسي أكثر من أي جزء آخر من جسمي بسبب منظره على ما أظن. لم أشاهد في حياتي ذبابًا مثل هذا الذباب الذي يبدو لي وكأنه يرتدي أحذية يتحرك بها طوال الوقت على رأسي ويسبب لي العذاب والألم. فهو بالنسبة له حديقة ونادٍ ومصيف، يقيم فيها الحفلات وجميع أنواع الأعمال الوحشية. هو لا يخشى شيئًا، فكل الذباب يمتاز بالجرأة، ولكنّ الذباب الذي أتحدث عنه هنا أكثر جرأة من غيره من جنسيات الذباب الأخرى، إذ لا تنفع أي وسيلة مهما كانت في

إخافته وإبعاده.

الأول من أكتوبر: اكتشفت أنّ سائق العربة يتناول جميع وجبات طعامه في المطبخ، فقمت بتعديل العقد ليشمل طعامه الذي كان يكلف ثلاثين فرنكًا في الشهر، وهذه هي التكلفة الحقيقية لطعام الفرد في تلك القرية. فصرت أعطيه مئتي فرنك وأدخر الثلاثين التي كانت تذهب بشكل خاطئ، فالاحتفاظ بها أفضل من عدم الاحتفاظ بشيء.

السادس من أكتوبر: أجد نفسي في وضع غير مناسب في هذا المكان. أربعة أشخاص في المنزل يتحدثون الإيطالية فقط، وشخص واحد يتحدث الألمانية ولا شيء غيرها، وبقية الكلام باللغتين الفرنسية والإنجليزية، أو يكون كلامًا بذيئًا. وأنا لا أعرف من هذه اللغات سوى أقل القليل، باستثناء واحدة أو اثنتين. أنجيلو يتحدث فرنسية ابتدعها هو نفسه ولا يستطيع أن يفهمها أحد، وهو يفضلها على لغته الأم الإيطالية. إنه يحب أن يتحدث بها، ويحب أن

يستمع إلى نفسه وهو يتحدث بها، فهي بالنسبة إليه موسيقى، وهو لا يستغني عنها. وأيًّا كانت اللغة التي يخاطبه بها الآخرون فهو لا يجيب أحدًا بغير تلك الفرنسية التي تبدو عندما يتحدث بها أشبه بصوت الفحم حين يدفع داخل الأنابيب. أعرف كلمات إيطالية عدة وعددًا من العبارات. وقد حاولت في البداية أن أستخدمها على نحو صحيح ومتواصل من خلال التعامل مع أنجيلو، ولكنه من جهة لم يكن يفهمها، ومن جهة ثانية لم يشأ أن يفعل ذلك، ولذا فأنا مضطر لوقف استخدامها وسحبها من سوق اللغة. ولكنّ ذلك لن يستمر طويلًا، فأنا أتمرن وأستعد. سأكون جاهزًا له يومًا ما، ليس بالفرنسية وإنما بلغته الأصلية.

السابع والعشرون من أكتوبر: ينقضي الشهر الأول، ونحن متفقون على أنّ العيش في فيلا داخل فلورنسا هو شيء مثالي. الطقس في منتهى الروعة، وكل ما في الخارج جميل، وجميع أوقات الليل والنهار تمتلئ بالراحة والهدوء.

وفي الابتعاد عن بقية العالم من الراحة والرضا ما لا يوجد إلا في الأحلام. فليس مطلوبًا منا أن ندبر شؤون المنزل أو نرسم الخطط، أو أن نهتم بأمور الشراء والبيع؛ كل هذه الأشياء يبدو لنا أنها تحدث بنفسها. يعرف الواحد تمامًا أنّ هناك شخصًا يقوم على خدمته ورعايته مثلما يعرف تمام المعرفة أنّ الأرض تدور، وأنّ الشمس تتحرك وفقًا لنظام معين؛ هذا ما يحدث. فهو لا يشعر بأنه مهتم لشيء أو مسؤول عن أي شيء بأي شكل من الأشكال. ليس هناك رئيس ولا مدير في المنزل، فكل خادم أو خادمة يهتم بالقسم الذي يتبع له ولا يحتاج إلى مراقبة، وليس هناك من يراقبه. لا تسمع في الأعلى ضجيجًا ولا مخاصمات ولا فوضى، ولا تدري ما يحدث في الأسفل. في أوقات متأخرة من المساء يأتي الأصدقاء من المدينة، ونتناول الشاي معًا في الهواء الطلق، وينقلون لنا أخبار العالم. وإذا بدأت شمس فلورنسا الجميلة بالمغيب، وبدأ ذلك المشهد اليومي الرائع حبسوا أنفاسهم،

وتركوا أبصارهم تسرح فيه، إذ إنّ الوقت عندها لا يكون وقتًا للكلام.

الفصل الثامن والعشرون:

رحلت سوزي عن هذه الدنيا في الثامن عشر من أوغسطس عام 1896 في هارتفورد. عندما حانت لحظة النهاية كان بجوارها كل من جين وكاتي ليري والبستاني وزوجته. في الحادي والثلاثين من يوليو وصلتُ إلى إنجلترا بصحبة كلارا ووالدتها بعد رحلة حول العالم، واستأجرنا منزلًا في غلدفورد. كنا ننتظر وصول سوزي وكاتي وجين من أمريكا بعدها بأسبوع، ولكن بدلًا من وصولهن فقد تلقينا رسالة.

هذه الرسالة كانت تقول إنّ سوزي تعاني مرضاً بسيطاً، وإنه ما من شيء يدعو للقلق. لكننا شعرنا بالقلق، وبدأنا نرسل البرقيات لمعرفة أي جديد حول المسألة. كان ذلك في يوم الجمعة، وطوال اليوم لم يكن هناك جواب. وكان موعد مغادرة السفينة لميناء ساوثامبتون

ظهر اليوم التالي. بدأت كلارا ووالدتها بحزم الأمتعة تحسبًا لوصول أنباء غير سارة. وأخيرًا وصلت برقية تقول : انتظروا وصول برقية في الصباح. لم يكن ذلك كافيًا ولا مطمئنًا. أرسلت برقية أخرى طلبت فيها أن يرسل الرد إلى ساوثامبتون، لأنّ النهار كان يقترب من نهايته وقتها. وجلسنا في البيت حتى الواحدة صباحًا ننتظر بصمت، لا ندري ما الذي كنا ننتظره. في الصباح ركبنا أول قطار، وعندما وصلنا ساوثامبتون كانت الرسالة بانتظارنا، وقد جاء فيها أنّ الشفاء مؤكد ولكنه سيستغرق وقتًا طويلًا. كان هذا مصدر ارتياح كبير بالنسبة لي، ولكن لم يكن كذلك بالنسبة لزوجتي، فقد كانت خائفة. صعدت هي وكلارا مباشرة إلى السفينة، وذهبتا إلى أمريكا للاهتمام بسوزي، وبقيت أنا حتى أبحث عن منزل آخر أوسع مساحة في غلدفورد.

كان ذلك في الخامس عشر من أغسطس 1896. بعد ثلاثة أيام، في الوقت الذي كانت فيه

زوجتي وكلارا في منتصف الطريق تقريبًا عبر المحيط، وصلتني برقية. كنت واقفًا في غرفة الطعام، لم أكن أفكر لحظتها بشيء معين. البرقية تقول: تحررت سوزي اليوم من آلام هذه الدنيا بكل هدوء.

إنه سر من أسرار الطبيعة البشرية أن يتلقى الإنسان دونما أدنى استعداد منه صاعقة كهذه ويبقى مع ذلك على قيد الحياة. هناك تفسير منطقي وحيد لذلك، فالصدمة تذهب بالعقل الذي بالكاد يستجمع عندها معاني الكلمات، وتغيب قدرته معها على إدراك هذه المعاني، وهذا من رحمة الله بنا. يتبلد الإحساس فلا يعي الإنسان حجم ما يتعرض له من خسارة - هذا كل ما في الأمر. وقد يستغرق العقل والذاكرة بعد ذلك شهورًا وربما سنوات في استجماع التفاصيل حتى يدرك حجم الخسارة الحقيقي.

الثامن عشر من أغسطس هو اليوم الذي وصل إليّ فيه نبأ تلك الفجيعة. كانت والدتها وشقيقتها ما تزالان في عرض الأطلسي، لا

تعلمان بما جرى، ولا تعلمان أنّ هذا الحدث الرهيب كان ينتظرهما. وقد قام الأقارب والأصدقاء الطيبون بكل ما كان يمكن القيام به لتخفيف أثر الصدمة عليهما. فقد ذهبوا إلى الخليج، وكانوا حاضرين عند وصول السفينة في الليل، ولم يعلنوا عن وجودهم إلا في الصباح ولكلارا فقط. عندما عادت كلارا إلى الحجرة في الباخرة لم تقل شيئًا، ولم يكن هناك داعٍ لأن تقول، فقد نظرت إليها والدتها وقالت: توفيت سوزي.

في العاشرة والنصف من تلك الليلة أكملت كلارا ووالدتها جولتهما حول العالم، ووصلتا إلميرا في القطار نفسه، وفي السيارة ذاتها التي أقلتني وإياهما غربًا قبل سنة واحدة وشهر وأسبوع. ومرة أخرى كانت سوزي هناك، لكنها لم تكن تلوّح بيديها مرحبة بقدومهما كما كانت تلوح بهما مودعة إيانا قبل ثلاثة عشر شهرًا. لقد كانت بدلًا من ذلك ترقد في نعشها بيضاء جميلة الوجه في ذلك المنزل الذي ولدت فيه.

الأيام الثلاثة عشر الأخيرة من حياة سوزي قضتها في بيتنا في هارتفورد، ذلك البيت الذي أمضت فيه أيام طفولتها، الذي كان على الدوام أغلى ما في الدنيا بالنسبة لها. كان حولها أصدقاؤها القدامى المخلصون: خالها وخالتها، وباتريك سائق العربة، وكاتي التي بدأت عملها في خدمتنا عندما كانت سوزي طفلة في الثامنة، وجون وإيلين اللذان أمضيا معنا سنوات طويلة، وجين أيضًا كانت هناك.

لم تكن حياة سوزي في خطر في الوقت الذي أبحرت فيه والدتها وأختها إلى أمريكا. ولكن بعد ثلاث ساعات من ذلك طرأ عليها تغير مفاجئ نحو الأسوأ، فقد اشتد عليها التهاب السحايا، وبدا واضحًا في الحال أنّ ساعتها قد دنت. كان هذا في يوم السبت، الخامس عشر من أغسطس.

تقول جين في الرسالة التي بعثت لي بها: «في ذلك المساء تناولت طعامها للمرة الأخيرة. وفي صباح اليوم التالي كانت الحمى عندها على

أشدها. ولوقت قصير قامت ومشت داخل الغرفة وهي تكابد الألم والحمى، ثم أحست بوهن شديد، وعادت إلى سريرها. وقبل ذلك وجدت ثوبًا معلقًا في خزانة، وكانت قد شاهدت والدتها فيما مضى ترتديه، فظنت أنّ ما رأته إنما كان والدتها وأنها كانت ميتة، فقبلته وأخذت تبكي. عند الظهر تقريبًا فقدت سوزي بصرها، وهذا أثر من آثار ذلك المرض، وفي الواحدة نطقت بكلمة لم تنطق بعدها بشيء».

كلمة واحدة عبرت بها عما بداخلها من شوق. تلمست المكان حولها ووجدت كاتي، فأمرّت بيديها على وجهها بلطف وقالت: ماما.

في حوالي الساعة الثانية بدت وكأنها تهيئ نفسها للنوم ولم تتحرك بعد ذلك أبدًا. فقد دخلت في غيبوبة استمرت لمدة يومين وخمس ساعات، وفي السابعة وسبع دقائق من مساء الثلاثاء أسلمت روحها. كان عمرها أربعة وعشرين عامًا وخمسة أشهر.

في اليوم الثالث والعشرين كانت والدتها وشقيقتاها في وداعها إلى مثواها الأخير. رحلت سوزي! رحلت عنا وهي التي كانت سحرًا في حياتنا وملاكًا.

الفصل التاسع والعشرون:

غدًا سيكون الخامس من يونيو (1906)، اليوم الذي شهد مأساة حياتي، وهي وفاة زوجتي. حدث ذلك قبل عامين في فلورنسا، حيث كنا قد أخذناها إلى هناك على أمل الشفاء بعد أن تدهورت حالتها الصحية في ذلك الوقت.

بدأت كتابة هذه السيرة الذاتية في فلورنسا في أوائل عام 1904، ولكني لم ألبث أن توقفت بسبب ما كنا نمر به من أوقات عصيبة. ولم أحمل نفسي على استئناف هذا العمل حتى يناير عام 1906، لأني كنت أدرك تمامًا أنه لن يكون بمقدوري أن أتحدث بالتفصيل عن التجارب المؤلمة التي مررنا بها في تلك الفترة، وعن الكرب الشديد الذي عانيناه خلال الاثنين

والعشرين شهرًا التي سبقتها.

كانت السيدة كليمنس ضعيفة الجسم طوال حياتها، ولم تكن رحلة ثلاثة عشر شهرًا حول العالم بالتجربة السهلة بالنسبة لها، ولكنها انتهت بسلام. وقد بدا أنّ وضعها كان يتحسن رغم حرارة الصيف الحارقة في أستراليا ونيوزيلاندة وتسمانيا. كنا لا نزال في فصل الصيف عندما أبحرنا من ملبورن في الأول من يناير عام 1896. وفي سيلان كان الجو شديد الحرارة بالطبع، كما هي الحال دائمًا هناك. وقد ظل الجو بالنسبة لنا صيفيًا في كل أرجاء الهند حتى السابع عشر من مارس، حيث نصحنا وقتها طبيب إنجليزي في جيبور بأن نسرع إلى كالكوتا ونخرج من الهند مباشرة، لأنّ حرارة الجو قد تصبح أشد في أية لحظة مما هي عليه، وعندها سيكون الأمر خطيرًا بالنسبة لنا. وعليه فقد تحملنا قسوة ذلك «الجو البارد»- كما كانوا يطلقون عليه هناك- من راوال بندي وحتى كالكوتا، وركبنا بعدها في السفينة متوجهين إلى جنوب إفريقيا.

كان الوضع الصحي للسيدة كليمنس يتحسن بشكل ثابت. وقد رافقتني هي وكلارا إلى جميع الأماكن التي ألقيت فيها المحاضرات في جنوب إفريقيا ما عدا بريتوريا، ولم يعاودها المرض في أي يوم من تلك الفترة.

انتهينا أخيرًا من جولة المحاضرات في الرابع عشر من يوليو 1896. وبعدها بيوم واحد أبحرنا إلى إنجلترا، ووصلنا ساوثامبتون في الحادي والثلاثين من ذلك الشهر. بعد ذلك بأسبوعين عادت السيدة كليمنز وكلارا إلى أمريكا للاهتمام بسوزي بعدما عرفنا بنبأ مرضها، حيث وجدتاها مسجّاة في نعشها في بيت جدتها.

بعد ذلك بوقت قصير انضم إليّ في إنجلترا بقية أفراد العائلة التي أصبحت أقل عددًا الآن بعد رحيل سوزي. وقد أقمنا في لندن وسويسرا وفيينا والسويد، ثم في لندن مرة أخرى حتى أكتوبر من عام 1900. في الوقت الذي انطلقنا فيه عائدين إلى أمريكا في السفينة كانت السيدة كليمنس في أفضل أحوالها الصحية والجسدية

منذ كانت في السادسة عشرة من عمرها وتعرضت لتلك الحادثة التي أشرت إليها سابقًا.

استأجرنا منزلًا في نيويورك قبالة الجادة الخامسة لمدة عام، وهناك بدأت الأعباء الكثيرة والمختلفة تثقل كاهلها. كان المنزل واسعًا، وكان القيام بشؤونه يمثل عبئًا كبيرًا وشاقًّا، كما هي الحال دائمًا في نيويورك. وقد شكل الجانب الاجتماعي في حياتنا عبئًا آخر عليها. وفي ظل الاندفاع وصخب الحياة الذي تشهده أواسط الشتاء في نيويورك، زادت مراسلاتي إلى حد تجاوز طاقتي وطاقة السكرتير الذي كان يعمل لدي. وقد اكتشفت أنها كانت تحاول تخفيف الأعباء عنا. ففي أحد الأيام قمت بكتابة اثنتين وثلاثين رسالة، وكانت رسائل موجزة، وقد هالني أن وجدت بعد ذلك أنها قد كتبت هذا العدد نفسه من الرسائل. لقد أضافت عبئًا جديدًا إلى الأعباء الأخرى لديها، التي كانت ثقيلة بما يكفي.

في شهر يونيو التالي، وبعد تسع سنوات ونصف السنة من الهدوء وراحة العيش في أوروبا، بدأت آثار هذه الطريقة في الحياة تظهر عليها. لقد أفادتها كثيرًا فترة الأشهر الثلاثة من الراحة والهدوء التي قضيناها في جبال أديروندداك. بعد ذلك قمنا باستئجار منزل واسع في ريفرديل على نهر هدسون، وقد شكل القيام بشؤونه عبئًا ثقيلًا عليها أيضًا. ففي أوائل عام 1902 تعرضت لانهيار عصبي، ولكنّ الخطر زال سريعًا.

في نهاية يونيو استأجرنا منزلًا مؤثثًا بالقرب من يورك هاربر لقضاء فترة الصيف هناك. كنا ننزل في الطقس الصيفي الجميل إلى البحر في اليخت البخاري السريع الذي كان يملكه السيد روجرز. ولكنها لم تحس بطعم الراحة، ولم يكن يراد لها أن ترتاح أبدًا. كانت روحها أشبه بمحرك بخاري في جسد بشري. تلك الروح كانت ترهق ذلك الجسد دائمًا بما لديها من طاقة لا تنتهي، وتجبره على القيام بأعمال تتجاوز

مقدرته. فبعد مدة بسيطة بدأت تحس أنّ قلبها لم يعد على ما يرام، وأصبح هذا الإحساس يقوى عندها ويزيد بشكل متسارع. وبمضي أسبوعان على هذه الحال صار الخوف من الموت ملازمًا لها، وبقي الأمر كذلك طوال شهر يوليو.

عند الساعة السابعة صباح اليوم الحادي عشر من أغسطس استيقظت على صوت صرخة. رأيت السيدة كليمنس تقف في الجهة المقابلة من الغرفة، وكانت تستند على الجدار وتلهث، وتقول: إنني أموت.

أعدتها إلى السرير، وأرسلت في طلب الدكتور ليونارد، وهو طبيب من نيويورك. وقد أخبرني بأنها تعاني انهياراً عصبياً، وأنه لن يجدي معه سوى الراحة التامة والبقاء وحدها، وأن نهتم بها ونرعاها بشكل كامل. كانت تلك هي البداية. وعلى العموم فإنه لم يكن يتعامل معها في الشهور الاثنين والعشرين التالية سوى الأطباء والممرضات المدرَّبات.

لقد حمل لنا الشهران التاليان الكثير من

القلق والجزع. كانت كلارا تلازمها لثلاث أو أربع ساعات يوميًّا، وكانت هذه في الواقع مهمة صعبة. وفي كل يوم كانت كلارا تخفي عن والدتها حقائق خطيرة، فتساهم بذلك في إنقاذ حياتها وفي إبقاء الأمل ولحظات السرور لديها من خلال كذبات بريئة. لم تكذب على أمها أبدًا في حياتها قبل ذلك الوقت، ولكني أستطيع أن أقول الآن إنها لم تخبرها بعده بأية حقيقة. ومن حسن حظنا جميعًا أنّ كلارا كانت تحظى عندها بمصداقية كبيرة. تلك المصداقية كانت تنجينا من حدوث مأساة في كل يوم. لم يكن بمقدوري مطلقًا الحصول على مصداقية كمصداقية كلارا، ولو كان الأمر عكس ذلك لكنت استفدت من وجودها الآن، ولكنّ الوقت قد فات على محاولة الحصول عليها ومكابدة اكتسابها، ولذلك لم أحاول أبدًا أن أدلي بأية معلومة أمام زوجتي. لقد كنت أختبئ خلف حقيقة كوني غير مسموح لي بدخول غرفتها سوى مرة واحدة في اليوم ولدقيقتين فقط. كانت الممرضة

تقف عند الباب وعينها على الساعة في يدها، وحين ينتهي الوقت المخصص لي تخرجني من الغرفة.

مع نهاية أكتوبر عام 1902 انتقلنا بالسيدة كليمنس مع ممرضتها إلى إيطاليا، وأقمنا هناك في فيلا دي كوارتو. لقد عانت المرض طوال حياتها ولكنّ قدرتها المدهشة على التعافي والشفاء كانت تجعلها دائمًا تجتاز جميع المخاطر بسلام. كان الخوف يتملكنا طوال الوقت، ولكننا لم نفقد الأمل أبدًا، على الأقل حتى الأسبوعين أو الثلاثة الأخيرة. لم يكن مثلها من يفقد الأمل، ولم نكن نتوقع منها أبدًا أن تفقد الأمل في أية لحظة، ولكنها نظرت أخيرًا في عيني وقالت:

«تظن بأني سأكون بخير؟»

لقد قالتها بطريقة لم تقل بها كلمة قبل ذلك أبدًا! كان ذلك خيانة منها لتلك التوقعات والآمال، وكان الأمل لديها يتلاشى وينهار. لقد أدركتُ ذلك.

الفصل الثلاثون:

الساعة تشير إلى الحادية عشرة والربع ليلًا، واليوم هو الأحد، الخامس من يونيو 1904. مضت الآن ساعتان على وفاتها. لا أصدق أنّ ذلك قد حدث. الكلمات لا معنى لها، لكنها صحيحة. لا أدرك فحواها ولا مضمونها، لكني أعلم بأنها صحيحة. لقد كانت هي الحياة في نظري، وقد رحلت.

قبل أربع ساعات فقط كنت أجلس بجوار سريرها، وكانت كلارا وجين تتناولان غداءهما. كانت مبتهجة، وكانت تعلو وجهها إشراقة جميلة، وهذا نادرًا ما كان يحدث في تلك الأسابيع الأخيرة التي حملت لنا التعاسة والشقاء. أرادت أن تتحدث برغم أنها كانت ممنوعة من الكلام، فقد كان الكلام يتعبها. كانت تبدي اهتمامًا تامًّا بالمكالمات التي كنا نجريها أنا وجين، وكانت تسأل عن أحوال الناس جميعهم كما كانت تفعل دائمًا في حياتها.

ارتسمت على محياها تلك الابتسامة الطبيعية التي نعرفها، فكانت أشبه بأشعة الشمس حين تتخلل غيومًا تلبدت بها السماء لأسابيع. تلك الابتسامة حلّقت بي عاليًا وجعلتني أصدق المستحيل؛ أصدق أنها ستنهض مرة أخرى وتمشي، وتعود رفيقتنا التي كانت. مسكينة هي، كم كانت متعَبة وكم كانت تحب حياتها! لقد كانت تتعلق بها بكل حب ولهفة طوال اثنين وعشرين شهرًا من العزلة والوحدة والألم.

خدعت بتلك الروح والحيوية التي أظهرتها، فتجاوزت كثيرًا في جلوسي عندها تلك المدة التي كان يقتضيها الوضع. ثم بدأت ألوم نفسي بعدها، واعتبرت أني قد ارتكبت خطأً، ولكنها قالت إنه لم يكن في الأمر من ضير. ثم سألتني إن كنت سأعود، وأجبتها بأني سأفعل، لكي أودعها وأتمنى لها ليلة سعيدة كما كنت أفعل عند التاسعة والنصف من كل ليلة في تلك الشهور الطويلة.

جلست في غرفتي لبعض الوقت. كانت

تملأني القناعة والرضا، وخلا قلبي بشكل غريب من كل ما كان يثقل كاهله من هموم، وأحسست لأول مرة في تلك الشهور الطويلة الثقيلة على نفسي بسلام يغمر روحي. ثم فعلت شيئًا نادرًا ما كنت أفعله منذ أن رحلت عنا سوزي قبلها بثمانية أعوام، سوزي التي لن يعوض فقدانها أي شيء في هذه الدنيا، فقد ذهبت نحو البيانو وبدأت أنشد الأناشيد القديمة، أناشيد الزنوج التي لم يكن يعبأ لسماعها أحد حين كنت أغنيها سوى سوزي ووالدتها. وبعد ذلك بقليل عدت إلى غرفتي، وكان موعد نزولي إلى غرفة زوجتي في الطابق الأسفل يقترب. فقد كانت الساعة تشير إلى التاسعة والربع، وكان يتوجب علي ألا أتجاوز التاسعة والنصف في ذهابي إليها. في تلك اللحظة كانت ليفي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

واجهتُ الممرضة في أعلى الدرج، وكانت قد جاءت من أجلي. لم يخطر في بالي شيء من ذلك، فقد ظننت أنّ ليفي كانت متعبة فقط وتحتاج إلى الهدوء والراحة لبقية تلك الليلة.

كانت تجلس في سريرها ورأسها مائل نحو الأمام، فهي لم تكن تستطيع منذ شهور عدة أن تستلقي على ظهرها. كاتي تقف عند أحد جانبي السرير، والممرضة على الجانب الآخر، يمسكان بها، وكلارا وجين عند قدميها ينظران إليها في حالة من الصدمة والذهول. وقفت إلى جانبها وانحنيت نحوها، ونظرت في وجهها. أظنني تحدثت إليها، لكني لست متأكدًا من هذا. لم تبادلني الحديث. استغربت لذلك، ولم أفهم الأمر. بقيت أنظر إليها متعجبًا مستغربًا، ولم أستوعب على الإطلاق ما حدث. ثم قالت كلارا: «هل حدث ذلك بالفعل يا كاتي؟ هل حدث حقًّا؟ لا يمكن أن يكون قد حدث!» انفجرت كاتي بالبكاء والنحيب، ولحظتها أدركت الأمر.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بعشرين دقيقة. لقد كانت تتكلم قبل ذلك بخمس دقائق، وقد سمعتني وأنا أغني وأعزف على البيانو، وقالت للممرضة: «إنه يغني لي ويتمنى

لي نومًا هانئًا». لم تدرك الممرضة ومن معها أنها كانت تعيش لحظاتها الأخيرة، فقد كانت تتكلم وكانت سعيدة، وفي لحظة واحدة فارقت هذه الدنيا. لقد تعرضت خمس مرات في الأشهر الأربعة الأخيرة لحالات شديدة من ضيق التنفس، وفي كل مرة من تلك المرات كانت تصارع بقوة ولمدة ساعة أو أكثر لكي تتمكن من التنفس، وظلت تعيش في خوف شديد من شبح الاختناق والموت. ولكن من رحمة الله بها أنّ موتها كان على ألطف وأسرع ما يكون عليه الموت. لقد توفيت إثر نوبة قلبية أصابتها!

لقد كانت أجمل وأرقى وأنبل من عرفت في حياتي. وهي الآن ترقد بسلام.

الفصل الحادي والثلاثون:

قبل بضعة أيام كتبت لجون هويلز بعض العبارات التي مدحته فيها وأثنيت عليه بقوة بسبب التصميم الذي وضعه لهذا المنزل. أذكر جون عندما كان طفلًا صغيرًا. كم يبدو لي غريبًا

وعجيبًا أني عشت وعشت وعشت، وواصلت العيش في هذه الحياة ليأتي ذلك الطفل أخيرًا ويبني لي بيتًا أعيش فيه ويظلني سقفه، ذلك الطفل ما زلت أراه صغيرًا يعدو أمامي. لا أستطيع أن أصدق أنه هو نفسه هذا الشخص.

تحضرني وأنا أتحدث عن الطفولة والصِّبا مسألة ما، وهي أنّ الناس دائمًا يقولون لي: «ما كنت لتبدو أصغر عمرًا هكذا لو أنك كنت أصلع الرأس في مثل هذه السن. كيف استطعت أن تحافظ على هذا الكم من الشعر؟» فأجيبهم بالفرضيات، وذلك لقلة ما لديّ من معلومات حقيقية حول الموضوع. وأقول لهم إني أعتقد أنّ شعري لم يتساقط لأني أحافظ على نظافته، فأنا أغسله بشكل كامل كل صباح بالماء والصابون، ثم أنظفه من الصابون جيدًا، ومرة أخرى أعود وأغسله كاملًا بالصابون، وأنظفه منه بقطعة خشنة من القماش، وهذه العملية تترك طلاءً زيتيًا خفيفًا على كل شعرة، وهو طلاء يأتي من الصابون. فتنظيف الشعر وتزييته

معًا يجعلان منه ناعمًا حريريًّا، يحتفظ بنضارته وحيويته طوال اليوم بشكل جميل ومريح للنفس. وبرغم أنه يتسخ مرة أخرى خلال عشر ساعات، سواء أفي الريف أو في المدينة، إلا أنّ الاتساخ لا يصل لدرجة يصبح معها الشعر خشن الملمس أو يخلق إحساسًا بعدم الارتياح قبل أن يمر حوالي أربع وعشرين ساعة. وفوق ذلك فإنّ الأوساخ التي يتعرض لها خلال الساعات الأربع والعشرين هذه لا تكون من الكثرة بحيث تؤدي إلى تلويث الماء حين تغسله به.

نأتي الآن إلى مسألة غريبة، فردّ الآخرين على تفسيراتي يقودهم دائمًا إلى التعليق القديم نفسه، ذلك التعليق التافه الذي يصرون عليه دائمًا، وهو أنّ الماء يتلف الشعر لأنه يتسبب في إضعاف جذوره. وهذا التعليق لا يقدم بطريقة تجعله قابلًا للنقاش، وإنما يقدم على أنه أمر محسوم لا جدال فيه. وبدوري أقول للمتحدث الذي يتحدث بكل ثقة: «وكيف عرفت ذلك؟»

فيبدو عاجزًا لا يدري بما يجيب. وإذا سألته عما إذا كان قد أتلف شعره نتيجة لغسله بالماء يتبين لي أنه لا يغسله كثيرًا، وعلى ذلك فإنّ حديثه لا يستند إلى تجربة. وإذا سألته ما إذا كان يعرف أشخاصًا تلفت عندهم جذور الشعر للسبب ذاته اتضح أيضًا أنه لا يعرف ولو حالة واحدة.

أمر غريب! إنه يشبه تمامًا ما يحدث في الدين والسياسة. فالناس في أغلب الحالات ينقلون وبدون التحقق من آرائهم ومعتقداتهم من أطراف ثانية لم تتحقق هي ذاتها منها. وهذه الأطراف الثانية تكون بدورها قد نقلتها قبل ذلك عن أطراف أخرى من الناس ممن لم تتحقق هي أيضًا من تلك القضايا والمسائل، وعلى ذلك فإنّ تلك الآراء والمعتقدات لا تساوي فلسًا واحدًا.

إنّ جنس البشر جنس غريب الأطوار ومثير للتساؤلات. فالإنسان على الدوام يغسل وجهه وعينيه وأذنيه وأنفه وأسنانه، وفمه وقدميه ورجليه، وهو على قناعة تامة بأنّ النظافة من

الإيمان، وأنّ الماء هو أفضل ما يمكن أن يحفظ له صحته، وأنه لا خطورة عليه البتة منه إلا في حالة واحدة: إذا غسل به رأسه!

كلما بحثت هذه المسألة بشكل أعمق زاد فضولك نحوها. فكل واحد منا يغسل يديه بالماء والصابون قبل أن يتناول طعام العشاء، ويغسلهما قبل الإفطار، وقبل الغداء. وهو يعلم من طريق التجربة وليس فقط من مجرد التخمين بأنّ يديه في جميع هذه الحالات تكونان بحاجة إلى النظافة حين ينظفهما. فهل يظن أنّ شعره الذي يظل مثل يديه مكشوفًا طوال الوقت لا يتسخ هو الآخر؟

يستغرب الآخرون مسألة كوني أرتدي ملابس بيضاء دائمًا في الشتاء وفي الصيف. فمبعث الاستغراب إذن هو أني أفضل أن أكون نظيف الملابس، نظيفًا في عالم قذر، فأنا قطعًا الإنسان الوحيد الذي يرتدي ملابس نظيفة بين كل أفراد العالم المسيحي شمال المنطقة المدارية. وهذا ما أنا عليه بالفعل. جميع الملابس تتسخ

كل يوم كما تتسخ اليدان في الوقت ذاته أيضًا إذا اكتفى الشخص بغسلهما مرة واحدة فقط، وهذا من أشكال الإهمال التي لا يرضى أن يقع بها أي سيد محترم أو سيدة. جميع أبناء العالم المسيحي يرتدون ملابس داكنة، وهذه الملابس تتسخ بعد يوم من ارتدائها، وتستمر بالاتساخ أكثر وأكثر، يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع، إلى أن يأتي الوقت الذي لا تعود فيه صالحة للاستخدام. يبدو الرجال أنيقين في ملابسهم السوداء حين تراهم في عشاء عمل مثلًا أو نحو ذلك، ولكنّ تلك البدلات التي يرتدونها تبدو أملاكًا عقارية أكثر منها ملابس عادية، وهي تحمل من التراب ما يمكنك أن تزرع فيه بذورًا وتعطيك محصولًا كاملًا.

الفصل الثاني والثلاثون:

ستورمفيلد: ليلة عيد الميلاد

1909/ الحادية عشرة صباحًا

جين في ذمّة الله!

أتساءل إن كان أحد من الناس قد جرب في حياته أن يدون جميع ما يتعلق بعزيز لديه من أحداث صغيرة، أحداث حدثت في آخر أربع وعشرين ساعة من حياة ذلك العزيز الذي يرحل عن الدنيا فجأة وبلا أدنى توقع! هل يمكن أن يتسع لتلك الأحداث كتاب؟ هل يمكن أن يتسع لها كتابان؟ لا أظن ذلك. فهي تتدفق إلى العقل تدفقًا. هي أشياء صغيرة كانت تحصل دائمًا في كل يوم، ولم تكن ذات أهمية قبل ذلك، فكانت تنسى بسهولة - أما الآن! كم هي مختلفة الآن! كم هي عزيزة وأثيرة تلك الأحداث على النفس، وكم هي متأصلة في الذاكرة!

كانت جين بكامل قوتها الليلة الماضية،

وكذلك أنا بعد الإجازة التي قضيتها في برمودا. فرغنا من العشاء وذهبنا إلى المكتبة يدًا بيد، وجلسنا فيها وتحدثنا، وخططنا وتناقشنا بفرح وسرور، وبكل طمأنينة، حتى التاسعة، وهو وقت نعتبره متأخرًا، ثم صعدنا بعدها إلى الأعلى. وحين وصلنا إلى باب غرفتي قالت لي: ليلة سعيدة يا أبي. لا أستطيع أن أقبّلك، فأنا مصابة بالزكام وأخشى أن ينتقل إليك. فانحنيت وقبلت يدها. تحركت مشاعرها لذلك، لقد رأيت هذا في عينيها، فاندفعت نحو يدي وقبلتها في المقابل. وبالطريقة المرحة التي اعتدناها قال كل منا للآخر: «نم جيدًا يا عزيزي»، وافترقنا.

عند السابعة والنصف صباح هذا اليوم استيقظت على أصوات خارج باب غرفتي، وقلت لنفسي إنّ جين كالعادة تنطلق الآن على ظهر الحصان نحو محطة البريد. ثم دخلت كاتي التي كانت قد أمضت تسعة وعشرين عامًا من العمل في خدمتنا، ووقفت إلى جانب السرير،

وظلت ترتعش وتلهث للحظات قبل أن تتمكن من الكلام، لتقول:

الآنسة جين ميتة!

أظنني أعرف الآن كيف يحس جندي تخترق رصاصة قلبه.

داخل غرفة الحمّام تجثو صغيرتي الجميلة وعلى جسدها المسجى غطاء، تبدو هادئة تمامًا وطبيعية، كأنها هي نائمة. لقد عرفنا ما حدث. فقد كانت تعاني الصرع، وقد عاودتها نوبة من ذلك المرض وأصابتها سكتة قلبية بينما كانت تأخذ حمامها. كان على الطبيب أن يقطع أميالاً عدة كي يصل إلينا، وقد فشلت جهوده في أن تعود جين إلى الحياة، كما فشلت من قبل جهودنا.

قبل أربعة أيام عدت من برمودا وأنا في أفضل وضع صحي لي بعد أن أمضيت فيها إجازة لمدة شهر، ولكن لسبب ما فهم المراسلون غير ذلك. فمنذ أمس الأول بدأت تصل إليّ الرسائل والبرقيات من الأصدقاء وكذلك من

الغرباء، وجميعها جاءت بناء على اعتقاد خاطئ بأني كنت مريضًا لدرجة خطيرة. وقد حاولت جين يوم أمس أن تجعلني أوضح للناس الأمر من خلال خدمات البرق الخاصة بالصحف، ولكني اعتبرت أنّ الأمر ليس بتلك الأهمية، فشعرت بالأسى. أخبرتها بأنه يتوجب علي أن أفكر بكلارا، فهي ستشاهد التقرير في الصحف الألمانية. كانت كلارا قد أمضت أربعة أشهر متواصلة ليلًا ونهارًا في رعاية زوجها المريض، وقد أنهكها ذلك، ويمكن أن تتلقى المفاجأة الآن بما لا يحمد عقباه، وهذه نتيجة منطقية. بعد ذلك قمت بإرسال فقرة فكاهية بالهاتف إلى خدمة البرقيات أنكر فيها «تهمة» أني كنت «على فراش الموت»، وأقول فيها: «لن أفعل شيئًا كهذا وأنا على قيد الحياة».

أبدت جين شيئًا من الانزعاج، إذ لم يرق لها أن تراني أتعامل مع المسألة بهذا التساهل. لكني أخبرتها بأنه من الأفضل أن أتعامل معها هكذا، لأنه لم يكن هناك ما يستدعي القلق. لقد

أرسلت إلى خدمة البرق في الصباح نبأ فجيعة هذا اليوم، فهل يا ترى سيظهر الخبران معًا في صحف المساء، الخبر الفكاهي الخفيف والخبر المؤلم الحزين؟

قبل ثلاثة عشر عامًا فقدت سوزي، ثم فقدت والدتها قبل خمس سنوات ونصف السنة، والدتها التي لا يوجد لها مثيل بين النساء! وبعد ذلك ذهبت كلارا لتعيش بعيدًا في أوروبا. والآن خسرت جين. ما أشدّ فقري، أنا الذي كنت يومًا شديد الغنى!

كان عمري أربعة وسبعين عامًا قبل أربعة وعشرين يومًا. يوم أمس كان عمري أربعة وسبعين عامًا، فهل يستطيع أحد أن يقدّر عمري اليوم؟

نظرت إليها مرة ثانية. لا أدري إن كنت أستطيع احتمال الأمر. إنها تبدو تمامًا كما بدت لي والدتها وهي مسجاة قبل زمن طويل في فلورنسا. إنّ الموت لأجمل من النوم!

لقد شاهدت والدتها وهي تدفن، وقلت إني

لن أقوى على احتمال ذلك المنظر المخيف مرة أخرى. لن أنظر بعد ذلك إلى قبر أي عزيز. وقد بقيت على ذلك. غدًا سيأخذون جين من هذا البيت وسيحملونها إلى إلميرا، حيث يرقد أولئك الذين كانوا بيننا ثم تحرروا من قيود هذه الدنيا. ولكني لن أذهب.

كانت جين في انتظاري حين وصلت السفينة التي جئت فيها قبل أربعة أيام فقط. كانت تقف على الباب عندما وصلت إلى المنزل مساء اليوم التالي، تستقبلني بابتسامتها. لعبنا الورق، وحاولت أن تعلمني لعبة جديدة تسمى «مارك توين». لم تسمح لي بالنظر إلى داخل الغرفة المجاورة التي كانت تقوم فيها بما يلزم من تحضيرات لعيد الميلاد، وقالت إنها ستنتهي منها في الصباح. ولكني استرقت نظرة أثناء خروجها لبضع لحظات، وهناك كانت المفاجأة التي لم تكتمل: شيء ما على شكل شجرة عيد ميلاد، مزين بألوان فضية على أروع نحو ممكن، وعلى إحدى الطاولات عدد كبير من الأشياء

الزاهية المتألقة كانت ستعلقها عليها اليوم.

جميع هذه الأشياء الصغيرة حدثت قبل سويعات قليلة – والآن هي مسجاة، ما عادت تهتم بشيء. إنه لأمر غريب – عجيب – لا يصدق. لقد مررت بهذه التجربة من قبل، ولكنها ستظل غير معقولة في نظري حتى لو مررت بها ألف مرة.

«الآنسة جين ميتة!»

هذا ما قالته كاتي. عندما سمعت الباب يفتح خلف السرير ظننت أنّ جين قد جاءت لتقبلني وتتمنى لي صباحًا سعيدًا...

ذهبت إلى غرفتها. كان فيها الكثير من هدايا العيد للخدم والأصدقاء. كانت في كل مكان، على الطاولات والمقاعد وعلى الأرض. كل مكان في الغرفة كان يمتلئ بالهدايا ويفيض بها. لقد مضت سنوات وسنوات على آخر مرة شاهدت فيها مثل هذا المنظر. في هذا اليوم التاريخي من كل عام كنت أنا والسيدة كليمنس ندخل خلسة وبهدوء إلى حجرة الأطفال لنلقي

نظرة على الهدايا الموجودة فيها عشية عيد الميلاد. كان الأطفال صغارًا في ذلك الوقت، وها هي الآن غرفة جين أمامي تبدو تمامًا كما كانت تلك الحجرة تبدو دائمًا. الهدايا لم تكتَب عليها أسماء الأشخاص الذين سيتلقونها بعد، فاليد التي كانت ستكتبها اليوم لن تقدر على فعل أي شيء بعد الآن. كانت والدتها تجهد نفسها دائمًا في التحضير للعيد. في الأمس فعلت جين الشيء ذاته، وفي الأيام التي سبقته، ومن غير المستبعد أن يكون الإجهاد قد كلفها حياتها.

خلال النقاش الذي دار الليلة الماضية بيننا قلت لها إني وجدت كل شيء يسير بسلاسة، وإني على استعداد للعودة إلى برمودا ثانية في فبراير ولشهر آخر لو كان لديها الرغبة في ذلك. كانت حريصة على أن أفعل، وقالت إني إذا قمت أنا بتأجيل الرحلة حتى شهر مارس فإنها ستذهب هي وكاتي معي. وتصافحنا بنية ذلك، واتفقنا على الأمر. كنت أنوي أن أرسل لهم في برمودا كتابًا مع السفينة التي كانت ستنطلق

في اليوم التالي كي يحجزوا لي بيتًا مؤثثًا ويكون فيه خدم، وقد قررت أن أكتب الرسالة هذا الصباح، ولكنها لن تكتب الآن أبدًا.

هذا المنزل الذي قمت ببنائه قبل عامين، لماذا بنيته! حتى يضم هذا الفراغ الكبير؟ كم كنت غبيًّا! لكني سأبقى فيه مع ذلك، فأرواح من رحلوا تبارك المكان. لقد كان الأمر مختلفًا مع بقية أفراد أسرتي، فقد توفيت سوزي في البيت الذي أقمناه في هارتفورد، البيت الذي لن تدخله السيدة كليمنس مرة أخرى، لكني صرت أحبه أكثر. لقد دخلته مرة واحدة بعد ذلك، وكان يسوده الفراغ والصمت، لكنه كان مكانًا جميلًا في نظري ومقدسًا، وبدا لي أنّ أرواح الموتى كانت جميعها حولي، وأنها لو استطاعت لحدثتني وحيتني. لم تدخل أي من كلارا أو جين ذلك الفندق الذي كانت ترتاده والدتهما في نيويورك في أيام خلت، إذ لم تكن إحداهما لتحتمل ذلك. أما أنا فسأبقى في هذا البيت، فهو أغلى عندي في هذه الليلة من أي وقت

مضى. فروح جين ستجعله جميلًا في نظري دائمًا. كم هو موحش موتها وفاجع، لكنني لن أفكر في هذا الآن.

لم يكن هناك قلب أطيب ولا أرق من قلب جين. كانت تنفق الجزء الأكبر من مخصصاتها على الجمعيات الخيرية بأنواعها منذ أن كانت طفلة. وبعد أن تضاعفت تلك المخصصات أصبحت تنفق في هذا الجانب بلا حدود.

كانت صديقة وفية لجميع الحيوانات من طيور وبهائم وغيرها، وقد أحبتها جميعها، حتى الأفاعي، وهذه الأخيرة تعلمت حبها مني. وكانت تعرف كل أنواع الطيور. وقد أسست جمعيتين أو ثلاثًا، هنا وفي أوروبا، لحماية الحيوانات.

كانت جين ترى أنّ كل من يرسل لنا رسالة يستحق منا أن نقابله بحسن الرد عليها، فقد أنشأتها والدتها على ذلك الخطأ بما يحمله من رحابة صدر وتلقائية. وكانت تكتب الرسائل بسلاسة وسهولة. لم تكن تهوى أذنها سماع

الموسيقى، ولكنّ اللغات كانت تجري على لسانها بسهولة ويسر، فهي لم تكن لتهمل الإيطالية ولا الفرنسية ولا الألمانية أبدًا.

ظهر يوم عيد الميلاد- ذهبت مرات عدة إلى غرفة جين الليلة الماضية، أرفع الغطاء وأنظر إلى وجهها الذي يمتلئ بالهدوء والسكينة، وأقبل جبينها البارد. تذكرت تلك الليلة المفجعة قبل زمن بعيد في تلك الفيلا الضخمة الصامتة في فلورنسا، حين كنت أنزل من وقت لآخر إلى الطابق السفلي وأرفع الغطاء وأنظر إلى وجه يشبه تمامًا هذا الوجه، وأقبل جبينًا يشبه تمامًا هذا الجبين. في الليلة الماضية رأيت ثانية ما كنت قد رأيت في ذلك الوقت؛ رأيت ذلك الشيء الغريب الجميل، رأيت ذلك المحيّا العذب الناعم في أيام الصِّبا تستعيده يد الموت الرؤوف الحانية.

ليلة عيد الميلاد- أخرجوها من حجرتها ظهر هذا اليوم. ونزلت أنا حالما تمكنت إلى المكتبة، حيث كانت جين في نعشها، وفي

الملابس نفسها التي كانت ترتديها عندما كانت تقف في الطرف الآخر من الغرفة في السادس من أكتوبر الماضي، حيث كانت دليلة كلارا في عرسها. كان وجهها يشع بالسعادة وقتها. ذلك الوجه نفسه أراه الآن، يحيط به جلال الموت ويملؤه سلام الرب.

السادس والعشرون من ديسمبر، الساعة الثانية والنّصف مساءً. إنه الوقت المحدد. الجنازة تبدأ الآن. تبدأ في مكان يبعد عني أربعمئة ميل، لكنني أرى كل شيء وكأنني هناك بينهم. المكان هو المكتبة في بيت لانغدون. والنعش موجود في ذلك المكان الذي ذهبت إليه أنا ووالدتها قبل أربعين عامًا وأصبحنا زوجين، والذي وضع فيه نعش سوزي قبل ثلاث عشرة سنة، ونعش والدتها قبل خمس سنين ونصف السنة، والذي سيوضع فيه نعشي أنا عما قريب.

الساعة الخامسة! انتهى كل شيء.

عندما تركتنا كلارا قبل أسبوعين وذهبت

لتعيش في أوروبا كان الأمر صعبًا علي، ولكنّ بقاء جين معي خفف من صعوبة الفراق، وقلت إننا سنشكل عائلة معًا أنا وهي. واتفقنا على أن نكون رفيقين مقربين من بعضنا البعض وسعيدين، نحن الاثنان فقط. كنت أحمل ذلك الحلم الجميل في نفسي عندما وصلت جين لاستقبالي في السفينة الاثنين الماضي، وكان في نفسي عندما استقبلتني عند باب المنزل مساء الثلاثاء. كنا معًا. كنا عائلة. فقد تحقق الحلم - آه، لقد تحقق بكل روعة، تحقق وحمل لنا كل الرضا والقناعة. تحقق الحلم وظل حقيقة ليومين كاملين.

والآن؟! الآن ترقد جين بسلام.

ترقد في مثواها. لا أدري إن كنت أصدق ذلك. تغمّد الله روحها الطاهرة بالرحمة.

نبذة عن المؤلف:

يعتبر مارك توين من رواد الكتابة والرواية في أمريكا. اسمه الحقيقي صموئيل كليمنس. ولد سنة 1835. عرف بأسلوبه الرائع الذي تميز بروح الفكاهة، وقد بدأ يكتب للصحافة منذ الصبا. عمل في مهن مختلفة، بينها ربان باخرة.

بعد ولادته انتقلت أسرته إلى هانيبال التي توفي أبوه فيها، ليبدأ توين كفاحه من أجل البقاء، وهو الكفاح الذي رسم كل خط في أدبه فيما بعد. شارك في الحرب الأهلية، وكان لذلك أثر عميق في شخصيته.

كانت حياته سلسلة من المصائب: فهو الطفل المشاغب الذي ظفر بعداء الجميع، وهو الاقتصادي الفاشل الذي يعاني الإفلاس، وهو البائس الذي رأى أخاه يحترق، وهو الزوج والأب الذي فقد أفراد أسرته وظل وحيداً.

تميز مارك توين بشعبية عالية بين الأمريكيين، وكانت قصصه مرآة صادقة للمجتمع الأمريكي. توفي سنة 1910.

نبذة عن المترجم:

مترجم أردني، حاز جائزة ناجي نعمان الأدبية في لبنان عام 2006. من أعماله المنشورة:

- الترجمة الإنجليزية لكتاب «حين يهبط الليل» للكاتب الأردني أيمن خالد دراوشة، وهي منشورة في دار ناجي نعمان للثقافة والنشر/ لبنان/ 2006.

- "Aimless Roads": رواية قصيرة كتبها بـ«الإنجليزية»، وهي منشورة في أمريكا عام 2009/ Dorrance Publishing House.

مـارك تويـن- سيرة ذاتية

ظهر يـوم عيد الميلاد - ذهبت مـرات عـدة إلى غرفة جين الليلة الماضية، أرفـع الغطاء وأنـظر إلى وجهها الـذي يمتلئ بالهدوء والسكينة، وأقبل جبينها البارد، تذكرت تلك الليلة المفجعة قبل زمن بعيد في تلك الفيلا الضخمة الصامتة في فلورنسا، حين كنت أنزل من وقت لآخر إلى الطابق السفلي وأرفع الغطاء وأنظر إلى وجه يشبه تمامًا هذا الوجه، وأقبل جبينًا يشبه تمامًا هذا الجبين، في الليلة الماضية رأيت ثانية ما كنت قد رأيت في ذلك الوقت؛ رأيت ذلك الشيء الغريب الجميل، رأيـت ذلـك المحيّا العذب الناعم في أيـام الصِبا تستعيده يد الموت الرؤوف الحانية.

مارك توين







